بسم الله الرحمن الرحيم

إلى أم مدحت
صديقة عمري وشريكته
[illegible] ٤ / ٢٠٠٠
مأمون

مصطفى محمود
مفكراً إسلامياً

مأمون غريب

الناشر

دار الفيصل
للتأليف والترجمة والنشر

صبرى غنيم ـــ وفاء الغزالى ـــ حسام صبرى

□ الغلاف بريشة الفنان :
مصطفى حسين

■ تمهيد

الدكتور مصطفى محمود كاتب متعدد المواهب ، درس الطب وعشق الادب ، واحب الفلسفة ، وتعمق فى التصوف ، وهام حبا بالعلم ..

وجاءت مؤلفاته فى مختلف فروعها تمس كل هذه الجوانب .. ومن هنا كان ثراؤه الفكرى ..

وكتاباته الجريئة ، وإيمانه بما يكتب جعل لهذه الكتابات مذاقا خاصا ، كما أن آراءه ايدها البعض ، وعارضها البعض الآخر ، والفكر الثرى هو الذى يثير دائما الحديث حوله لأنه فكر مؤثر فعال ..

قد التقيت بالدكتور مصطفى محمود كثيرا ، وقرات معظم ما كتب .. ومن حصيلة هذا كله كان هذا الكتاب الذى يهدف الى أن يعرف القارىء عن قرب آراء هذا المفكر فى مختلف القضايا ومسيرة حياته ، ورؤياه للأمور والحياة .. وهذا يضع خطوطا امام فكره الخصب .. كما انه يكون دليل القارىء لانتاجه الفكرى والأدبى .. ومحاولة للاقتراب من هذا الفكر الذى اثرى حياتنا الثقافية والوجدانية ..

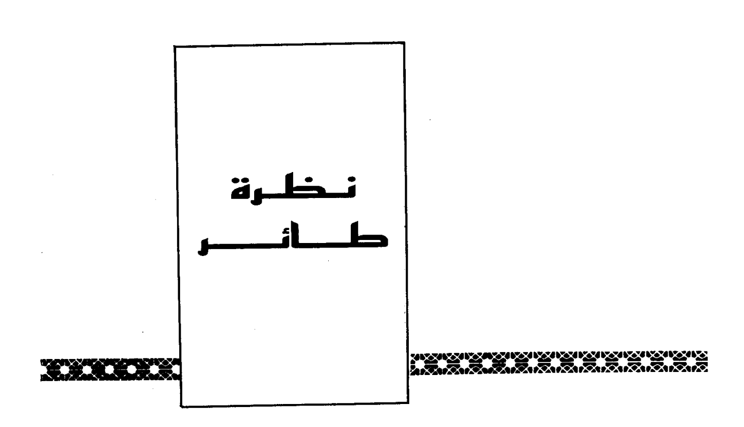
انها رحلة فى عالم المعرفة .. رحلة شائقة يخرج منها القارىء بثمرات وتجارب وقراءات اديب مفكر ، له جراة الملاح الذى يترك اشرعته للريح ميمما وجهه فى بحار المعرفة بحثا عن الحقيقة .. وما اشق الرحلة .. وما اصعب ما يعانى الملاح ..

* * *

مامون غريب



الفصل الأول



نظرة طائر



لا اعرف بالضبط متى بدات قراءاتى للدكتور مصطفى محمود ، وان كنت موقنا اننى قرات له وانا مازلت فى المرحلة الثانوية .. عندما استرعت انتباهى كتاباته المتسمة بالجراة فيما يتناول من موضوعات ثقافية أو دينية أو علمية .. وربما استرعى انتباهى بجانب الجراة فى التناول .. سهولة الأسلوب وعمق المعانى .. كما أن له قاموسه اللغوى المميز .. الذى يختلف فيه عن الآخرين ..

ثم بدات اقرأ له أكثر .. وادخل الى عالمه الفنى والفكرى عندما كنت ادرس الفلسفة فى الجامعة .. ربما الذى جذبنى اليه ما اتسم به فكره من لمسات فلسفية عميقة ، من خلال عشقه للعلم .. وما سببه للانسانية من تقدم حضارى مذهل وما جره فى نفس الوقت من كوارث على الجنس البشرى .. إن العلم الذى صعد بالانسان الى القمر .. وذهب بعيدا الى مدارات حول المريخ فى محاولة لسبر أغوار الكون الذى لا يمكن لأى عقل أو خيال تصور اتساعه .. هو نفس العلم الذى اخترع القنبلة الذرية .. وغيرها من المخترعات التى تهدد الوجود الانسانى نفسه .. وتحويل الحياة كلها على كوكبنا الأرضى الى خرائب وانقاض .. ودمار ..

رأيت فى الدكتور مصطفى محمود رحالة دائم الترحال الى المعرفة .. العلمية .. والدينية .. والفلسفية .. والتعبير عن كل ذلك من خلال المقال ..

والرواية .. والمسرحية بأسلوب متفرد متميز .. إنه ربان يحاول اكتشاف المجهول فيما حولنا .. وفيما يجرى فى اعماق الانسان نفسه .. فى تلك الغابة البالغة الغموض والتى تعيش فى داخلنا .. ومازلنا نجهل اعماقنا .. بالضبط كما زلنا نجهل الكثير من عالمنا ..

وإذا كانت الحياة وما يعتمل فيها مازال لغزا محيرا فى الكثير من مظاهر الوجود حولنا .. فما بالك فيما وراء المادة .. فى الأمور المغيبة عنا .. والغيب والايمان به من صميم الاسلام .. فإذا بالرجل الذى أرقته رحلة طويلة شائكة وهو يبحث عن اليقين ، يصمم أن يقوم بأعمق رحلاته وأخطرها فى محاولة البحث عن الحقيقة ..

إن الرحلة هنا شاقة رغم ما فيها من شوق عظيم الى المعرفة .. ولكنه يصمم أن يخوض هذه التجربة .. وأن يبحر فى رحلة فكرية رائعة ليعود من الرحلة موقنا مؤمنا .. بل ومتصوفا متذوقا لجلال الحب الالهى .. وجمال الخمر الالهية .. فإذا بحديثه عن السر الأعظم .. يهيم بنا فى عالم الصوفية .. وبحارهم .. وما فيها من مد وجزر .. وما فيها أيضا من محاذير ..

و .. عرفت الدكتور مصطفى محمود عن قرب عندما عملت بالصحافة .. وكان لى معه العديد من اللقاءات .. ثم اقتربت المسافة بينى وبينه أكثر ..

هذا الاقتراب جعلنى أتفهم فكره أكثر وأكثر .. وأعرف عن قرب ما قدمه فى مجال الفكر من تجربة خصبة لها تأثيرها بلا شك على جيله .. وعلى الأجيال القادمة .. لأنها تجربة انسان يفكر بصوت عال .. ودرس بعمق .. وخرج من هذه التجربة الرائدة بما ينفع الناس ..

فقد قدم للمكتبة العربية اكثر من خمسين كتابا .. ومازال عطاؤه مستمرا بجانب برنامجه التليفزيونى « العلم الايمان » .. الذى من خلاله يبسط العلم الحديث ، ويربطه بالايمان ، مما جعل له ملايين العشاق الذين يستمتعون بما يقدمه من مكتشفات العلم وانجازاته فى مختلف مجالاته .. ويجعل الانسان يفكر فى نفس الوقت فيما وراء هذا الاعجاز العلمى من قدرة الله سبحانه وتعالى ..

وقد شدنى العديد من كتبه .. وإذا كان من الصعب ان استعرض مؤلفاته المتعددة المتنوعة التى تزيد كما قلت على خمسين كتابا .. فإنه يكفى ان اشير الى هذا الانتاج الغزير اشارة اصبع كما يقولون .. اعطى الخطوط العامة لهذا الانتاج حتى يستطيع القارىء ان يلم بالخيوط التى تشكل فكر اديبنا الفنان .. وعلى من يريد ان يعيش عالمه ، فعليه ان يقرأ ما كتبه المؤلف .. وان كنت قد حرصت على التوسع فى مجال الفكر الاسلامى .. لأن هذا الجانب هو اكثر الجوانب اضاءة فى فكر الدكتور مصطفى محمود ، كما ان هذا الفكر هو الذى سيعيش اكثر بلا شك .

ود . مصطفى محمود كتب الرواية ، وكتب القصة القصيرة .. كما ألف عددا من المسرحيات .. أى انه من خلال هذا القالب الفنى قدم المؤلف رؤيته للحياة ، وهو فى كتاباته الفنية يجسد أفكاره فى ابطال رواياته ..

وهو فى قصصه ورواياته لا يستطيع الناقد أن يضعه فى قالب فنى معين .. أو مذهب أدبى معين .. ربما لأنه يجد فى النظريات قيدا على الفكر يحول دون التعبير بحرية أكثر .. وبرؤية بانورامية أكثر شمولا .. فهناك

الكثير من الأدباء والفنانين الذين يضيقون ذرعا بالقوالب الجامدة التى تحول دون حرية التعبير بعيدا عن الرؤى الضيقة ..

فالانسان لم يخلق ليأكل ، ولكنه يأكل ليعيش على حد تعبير المقولة المشهورة .. أو على رأى الدكتور مصطفى محمود نفسه فى تقديمه لمجموعته القصصية (أكل عيش) .

أريد لحظة انفعال .. لحظة حب .. لحظة دهشة .. لحظة اكتشاف .. لحظة معرفة .. أريد لحظة تجعل لحياتى معنى .. إن حياتى من أجل أكل العيش لا معنى لها ، لأنها مجرد استمرار .

وقد أعجبتنى الدراسة التى قدم بها الناقد الاستاذ جلال العشرى لهذه المجوعة .. الذى يرى أن مصطفى محمود فى قصصه القصيرة لم يتجه الى تصوير نماذج كلاسيكية كما يفعل الاخرون .. لم يتجه الى تصوير نموذج البخيل أو الجشع أو المراهق .. وانما اتجه الى تصوير أفكار فى موقف .. أفكار تحس وتتحرك وتتطور من خلال تصور الشخصيات نفسها .. فالشخصية وعاء للفكرة ، والقضية فى قلب الموقف ، والقيمة الفنية اذ تنطوى على القيمة الفكرية ، انما نصل بالقصة القصيرة الى اقصى مداها ..

وهكذا نجد أن مصطفى محمود لا يضحى بالقيمة الفنية من اجل القيمة الفكرية بحيث يجف العمل الادبى فى يده ، ويستحيل الى إثارة فكرية أو توجيه مباشر كما هو الحال عند كاتب مثل سارتر .. ولا يخاطر بالقيمة الفكرية لحساب القيمة الفنية فيقدم عملا شكليا أقرب الى الضجيج البحت او التكنيك الخالص كما هو الحال عند كاتب مثل تنسى وليامز ، وانما هو يحافظ على القيمتين معا ، ويحاول ان ينطلق بهما فى وقت واحد ، فهو مفكر من حيث هو فنان ، أو هو مفكر بما هو فنان .. أو أن المفكر والفنان فيه هما شىء واحد ..

واذا جاز لنا أن نقارن بينه وبين كاتب آخر من كتاب الغرب فربما كان البيركامى ، فالفكرة عنده هى البطل الرئيسى الذى نراه من خلال الشخصيات وندركه من وراء المواقف ، بحيث لا تصبح الشخصية ولا الموقف إلا بمثابة الجناحين اللذين تحلق بهما الفكرة .

والواقع أن تقييم أدب مصطفى محمود تقييما نقديا كاملا أمر يتعذر فى الوقت الحاضر ، فمن الصحيح أن مكانته المعروفة باعتباره أديبا ، قد أتاحت الظروف الملائمة لانتشار آرائه وذيوعها ، لكن من الصحيح كذلك أن جوهر تأثيره يكمن فى طبيعة هذه الاراء نفسها ..

وعلى الرغم من أن مصطفى محمود لم يشكل تيارا أدبيا جديدا وآثر ان يتخذ موقفا بعيدا عن الحركات المتطرفة فى مسايرة العصر ، سواء فى مجال الفكر أو فى مجال الأدب ، فان ما كتبه يعد إحساسا عميقا بالعصر الذى عاش فيه ، وتحليلا حافلا بالآراء حول طبيعة هذا العصر .

فاختياره للموضوعات التى تناولها يعكس الكثير من الاتجاهات والاهتمامات الفكرية المعاصرة ، وتناوله لهذه الموضوعات يكشف عن عقل ذكى وحساس ، ينزع نزعة انسانية ، ويجاهد للوصول الى حل لبعض المشكلات التى تؤرق ضمير الانسان الحاضر ..

ان مصطفى محمود فى حقيقته لهو رقيب وشاهد على هموم ومشاق عصره ، مثلما كان البير كامى رقيبا وشاهدا هو الآخر ..

مهما يكن من شىء ، فإن أدب مصطفى محمود ، وإن كان يعبر عن وجدانه وفكره من خلال رؤياه لتيار الحياة وما يموج فيها من احداث .. وما يعتمل فيها من آراء وافكار وتيارات ، فإنه يعبر عن كل ذلك بصدق الفنان ، وعقلية المفكر فخرجت اعماله الأدبية لها لون خاص .. ونسيج خاص ..

ولا اعتقد انه يخرج عن دائرة ذلك سوى مجموعته القصصية « نقطة الغليان » .. ربما كان يمر بمرحلة فكرية معينة .. أو بوجد صوفى معين .. فإذا بهذه المجوعة وهى تحكى قصصا مختلفة ، الا ان الخيط الذى يجمعها هو عودة ابطال هذه القصة وتيقنهم بأنه لا حل لما هم فيه من مشاكل وضياع ، ولا وصول بهم الى شاطىء آمن الا اذا اتخذت من (بوصلة) الايمان وسيلة للوصول الى شاطىء الأمن والأمان ..

ان هذه المجموعة تكاد تقترب فى بعض قصصها من السرد المباشر ، ولكن ربما تكون هذه المجوعة قد كتبت كما قلنا فى ظروف خاصة مر بها المؤلف نفسه ..

أما بقية أعماله القصصية فهو أديب يكتب أعماله بفرشاة الفنان .. ويرسم خطوط احداثها بعقلية المفكر .. فخرج من ذلك فى اعماله الفنية بقصص يمكن أن تقرأها وفى نفس الوقت تفكر . أى انك لا تلاحق أحداثها بقدر ما يجعلك المؤلف تقف طويلا باحثا عن الهدف .. أو الحكمة التى يخرج منها القارىء لهذه القصص . لأنها مغلفة بطابع فلسفى خاص ..

***

■ مصطفى محمود والفكر الدينى

واعتقد مخلصا ان اهم ما قدمه مصطفى محمود هو الجانب الفكرى وهو يحدثنا من خلال فكر عالم ، ورؤية فنان عن العديد من القضايا الفلسفية والفكرية التى قد تفرض نفسها على العقل الانسانى ومحاولة وضع هذه القضايا موضع التحليل العميق .. فاذا به يضع النقط فوق الحروف .. باجابات شافية . يقبلها العقل ، ولا يرفضها المنطق ..

ولعل اروع كتبه التى قرأتها وأعدت قراءتها مرارا وتكرارا كتابه (حوار مع صديق الملحد) .. انه يدخل الى مناطق فكرية شائكة .. ومع ذلك يدخل

بجرأة هذه المناطق .. ويناقشها بعقل متفتح .. وبالتالى فهو يفتح الطريق أمام الشباب لفهم أمور دينهم .. بعد أن يكشف زيف الملاحدة ، والذين يكيدون للاسلام باسم العلم حينا ، وباسم الفلسفة حينا اخر ..

فهو فى كتابة يطرح مشكلة (وجود الله) ، ويناقش زيف من يمسكون بتلابيب الفلسلفة ليفسدوا عقائد الناس .. مع ان الفلسفة نفسها لم تحل مشكلة ولم ترسم طريقا .. وهى تبدأ بعلامة استفهام وتنتهى ايضا بعلامة استفهام ..

وهو يناقش فى كتابه ايضا مشكلة القضاء والقدر ، ومناسك الحج وهل هى عادات وثنية ، كما يدعى البعض ، ام انها طاعة وامتثال لأمر الله ..

وهذه القضايا كلها من القضايا التى استغرقت دراسات متعددة . ومجلدات ضخمة .. ومازالت قضايا ملحة يثور حولها الجدل والنقاش ، ولكن الدكتور مصطفى محمود يخوض هذا البحر وهو مسلح بسلاح العلم والايمان والثقة بأسلحته الفكرية ، فيقدم لنا اجابات جادة وجديدة فى قضايا قديمة جديدة .. مثلا .. نقف معه فى حوار مع صديقه الملحد الذى يسأل اذا كان الله خالق كل شيء فمن هو الذى خلق الله ..

وأتركك مع اجابته :

***

■ « لم يلد ولم يولد »

صديقى رجل يحب الجدل ويهوى الكلام ، وهو يعتقد أننا ـ نحن المؤمنين السذج ـ نقتات بالأوهام ونضحك على أنفسنا بالجنة والحور العين وتفوتنا لذات الدنيا ومفاتنها .. وصديقى بهذه المناسبة تخرج فى فرنسا وحصل على دكتوراه ، وعاش مع الهيبيز واصبح ينكر كل شيء ..

قال لى ساخرا :

ـ أنتم تقولون : ان الله موجود .. وعمدة براهينكم هو قانون « السببية » الذى ينص على أن لكل صنعة صانعا ، ولكل خلق خالقا ، ولكل وجود موجدا .. النسيج يدل على النساج ، والرسم يدل على الرسام ، والنقش على النقاش ، والكون بهذا المنطق أبلغ دليل على الاله القدير الذى خلقه .. صدقنا وآمنا بهذا الخالق .. ألا يحق لنا بنفس المنطق أن نسأل .. ومن خلق الخالق .. من خلق الله الذى تحدثوننا عنه .. ألا تقودنا نفس استدلالاتكم الى هذا .. وتبعا لنفس قانون السببية .. ما رأيكم فى هذا المطب دام فضلكم ؟

ونحن نقول له : سؤالك فاسد .. ولا مطب ولا حاجة ، فأنت تسلم بأن الله خالق ، ثم تقول من خلقه ؟ فتجعل منه خالقا ومخلوقا فى نفس الجملة . وهذا تناقض ..

والوجه الآخر لفساد سؤالك أنك تتصور خضوع الخالق لقوانين مخلوقاته . فالسببية قانوننا نحن أبناء الزمان والمكان ..

والله الذى خلق الزمان والمكان هو بالضرورة فوق الزمان والمكان ولا يصح لنا أن نتصوره مقيدا بالزمان والمكان ، ولا بقوانين الزمان والمكان ..

والله هو الذى خلق قانون السببية ، فلا يجوز أن نتصوره خاضعا لقانون السببية الذى خلقه ..

وأنت بهذه السفسطة أشبه بالعرائس التى تتحرك بزمبلك ، وتتصور أن الانسان الذى صنعها لابد هو الآخر يتحرك بزمبلك .. فاذا قلنا لها بل هو يتحرك من تلقاء نفسه .. قال : مستحيل أن يتحرك شىء من تلقاء نفسه .. انى أرى فى عالمى كل شىء يتحرك بزمبلك ..

وأنت بالمثل لا تتصور أن الله موجود بذاته بدون موجد .. لمجرد أنك ترى أن كل شيء حولك فى حاجة إلى موجد ..

وأنت كمن يظن أن الله محتاج إلى براشوت لينزل على البشر و إلى اتوبيس سريع ليصل إلى انبيائه ، سبحانه وتعالى عن هذه الأوصاف علوا كبيرا .

وعما نويل كانت الفيلسوف الالمانى فى كتابه « نقد العقل الخالص » ادرك أن العقل لا يستطيع أن يحيط بكل الأشياء .. وأنه مهيأ بطبيعته لادراك الجزئيات والظواهر فقط .. فى حين أنه عاجز عن ادراك الماهيات المجردة مثل الوجود الالهى .. وانما عرفنا الله بالضمير وليس بالعقل .. شوقنا إلى العدل كان دليلنا على وجود العادل .. كما ان ظمأنا إلى الماء هو دليلنا على وجود الماء ..

اما أرسطو فقد استطرد فى تسلسل الأسباب قائلا : ان الكرسى من الخشب .. والخشب من الشجرة .. والشجرة من البذرة .. والبذرة من .. الزارع .. واضطر إلى القول بأن هذا الاستطراد المتسلسل فى الزمن اللا نهائى لابد أن ينتهى بنا فى البدء الأول إلى سبب فى غير حاجة إلى سبب .. سبب أول أو محرك أول فى غير حاجة إلى من يحركه .. خالق فى غير حاجة إلى خالق .. وهو نفس ما تقوله عن الله ..

أما أبن عربى فكان رده على هذا السؤال « سؤال من خلق الخالق ؟ » بأنه سؤال لا يرد إلا على عقل فاسد .. فالله هو الذى يبرهن على الوجود .. ولا يصح أن تتخذ من الوجود برهانا على الله .. تماما كما نقول أن النور يبرهن على النهار .. ونعكس الآية لو قلنا أن النهار يبرهن على النور ..

يقول الله فى حديث قدسى :

ـ « أنا يستدل بى .. أنا لا يستدل على » ..

فالله هو الدليل الذى لا يحتاج إلى دليل ، لأن الله هو الحق الواضح بذاته .. وهو الحجة على كل شىء .. الله ظاهر فى النظام والدقة والجمال والأحكام .. فى ورقة الشجر .. فى ريشة الطاووس .. فى جناح الفراش .. فى عطر الورد .. فى صدح البلبل .. فى ترابط النجوم والكواكب .. فى هذا القصيد السيمفونى الذى اسمه الكون .. لو قلنا أن كل هذا جاء مصادفة لكنا كمن يتصور أن إلقاء حروف مطبعة فى الهواء يمكن أن يؤدى إلى تجمعها تلقائيا على شكل قصيدة شعر لشكسبير بدون شاعر وبدون مؤلف ..

والقرآن يغنينا عن هذه المجادلات بكلمات قليلة وبليغة فيقول بوضوح قاطع ودون تفلسف :

ـ « قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » ..

ويسألنا صاحبنا ساخرا : ولماذا تقولون أن الله واحد .. ؟ لماذا لا يكون الآلهة متعددين .. ؟ يتقاسمون بينهم الاختصاصات ؟ ..

وسوف نرد عليه بالمنطق الذى يعترف به .. بالعلم وليس بالقرآن سوف نقول له ان الخالق واحد .. لان الكون كله مبنى من خامة واحدة وبخطة واحدة .. فمن الايدروجين تألفت العناصر الاثنتان والتسعون التى فى جدول « مندليف » بنفس الطريقة .. « بالادماج » .. واطلاق الطاقة الذرية التى تتأجج بها النجوم وتشتعل الشموس فى فضاء الكون ..

كما أن الحياة كلها بنيت من مركبات الكربون جميع صنوف الحياة تتفحم بالاحتراق .. على مقتضى خطة تشريحية واحدة .. تشريح الضفدعة ، والأرنب .. والحمامة .. والتمساح .. والزرافة .. والحوت .. يكشف عن خطة تشريحية واحدة .. نفس الشرايين والاوردة وغرفات

القلب .. ونفس العظام .. كل عظمة لها نظيرتها .. الجناح فى الحمامة هو الذراع فى الضفدعة .. نفس العظام مع تحور طفيف .. والعنق فى الزرافة على طوله نجد فيه نفس الفقرات السبع التى تجدها فى عنق القنفذ .. والجهاز العصبى .. هو هو فى الجميع .. .. يتألف من مخ وحبل شوكى واعصاب حس واعصاب حركة ..

والجهاز الهضمى من معدة وأثنا عشر .. وأمعاء دقيقة وأمعاء غليظة .. والجهاز التناسلى . نفس المبيض والرحم والخصية وقنواتها .. .. والجهاز البولى .. الكلية والحالب .. وحويصلة البول .. ثم الوحدة التشريحية فى الجميع فى الخلية .. وهى فى النبات كما فى الحيوان كما فى الانسان بنفس المواصفات .. تتنفس وتتكاثر وتموت وتولد بنفس الطريقة ..

فأية غرابة بعد هذا أن نقول أن الخالق واحد ..

ولماذا يتعدد الكامل .. ؟ وهل به نقص يحتاج إلى من يكمله ؟ .. انما يتعدد الناقصون ..

ولو تعدد الآلهة لاختلفوا ، ولذهب كل اله بما خلق .. ولفسدت الأرض ..

والله له الكبرياء والجبروت .. وهذه صفات لا تحتمل الشركة .. ويسخر صاحبنا من معنى الربوبية كما نفهمه .. ويقول أليس عجيبا ذلك الرب الذى يتدخل فى كل صغيرة وكبيرة ، فيأخذ بناصية الدابة ، ويوحى إلى النحل ان تتخذ من الجبال بيوتا ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها .. وما تخرج من ثمرات من أكمامها إلا أحصاها عددا .. وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه .. اذا عثرت قدم فى حفرة فهو الذى أعثرها .. واذا سقطت ذبابة فى طعام .. فهو الذى أسقطها .. واذا تعطلت الحرارة فى التليفون فهو الذى عطلها .. واذا أمتنع المطر .. فهو الذى منعه .. واذا هطل فهو الذى

أهطله .. ألا تشغلون الهكم بالكثير من التافه من الأمور بهذا الفهم ..

ولا أفهم أيكون الرب فى نظر السائل أجدر بالربوبية لو أنه أعفى نفسه من هذه المسئوليات وأخذ اجازة وادار ظهره للكون الذى خلقه وتركه يأكل بعضه بعضا ..

هذا الرب الجدير فى نظره هو رب عاطل مغمى عليه .. لا يسمع .. ولا يرى .. ولا يستجيب .. ولا يعتنى بمخلوقاته ؟ .. ثم من اين للسائل بالعلم بأن موضوعا ما تافه لا يستحق تدخل الاله .. وموضوعا آخر مهم وخطير الشأن ؟ ..

ان الذبابة التى تبدو تافهة فى نظر السائل فلا يهم فى نظره أن تسقط فى الطعام أو لا تسقط .. هذه الذبابة يمكن أن تغير التاريخ بسقوطها التافه ذلك .. فانها يمكن أن تنقل الكوليرا إلى جيش .. وتكسب معركة لطرف آخر .. تتغير بعدها موازين التاريخ كله ..

ألم تقتل الاسكندر الأكبر بعوضة ؟

ان أتفه المقدمات ممكن ان تؤدى إلى أخطر النتائج .. وأخطر المقدمات ممكن أن تنتهى إلى لا شىء .. وعالم الغيب وحده هو الذى يعلم قيمة كل شىء ..

وهل تصور السائل نفسه وصيا على الله يحدد له اختصاصاته .. تقدس وتنزه ربنا عن هذا التصور الساذج ..

انما الاله الجدير بالألوهية هنا هو الاله الذى أحاط بكل شىء علما .. لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ..

الاله السميع .. المجيب .. المعتنى بمخلوقاته ..

***

والذى يدرس إنتاج الدكتور مصطفى محمود وما كتبه من دراسات دينية .. تستوقفه قدرته على التأمل والتفكير الطويل قبل أن يكتب .. أى أن كتابته ليست كتابات عفوية .. أو هى ملء صفحات بكلمات محفوظة ومكررة .. ولكن كتاباته بها النبض الفلسفى .. بمعنى أنها مشحونة بشحنة فكرية .. فهو لا يأخذ ما يقرأ على علاته .. بل يفحصه جيدا ، ويستوعب ما فيه .. ويعرضه على ملكته النقدية ، ثم يكتب بعد ذلك عن إقتناع ..

وله دراسة جادة كتبها تحت عنوان « محمد عليه الصلاة والسلام ».. وهو فى هذا الكتاب الذى يحاول كما يقول فهم السيرة النبوية .. ينظر إلى شخصية الرسول من عدد من الزوايا .. فى كل زاوية من هذه الزوايا تبرز شمائل الرسول .. فهو لا يرى من الزاوية التى ينظر إليها البعض إلى الرسول عن جانب العظمة .. فهو يرى أنها ليست عظمة بل نبوة ..

ويحدثنا عن روحه المشعة الآسرة ، ثم يحدثنا عن سيرته التى تشبه الأعصار ، ويختمها بإلقاء الضوء على مدرسة الرسول صانعة الرجال .. ومن خلال هذه الزوايا المختلفة ، تتجسد لنا شخصية الرسول المبهرة ، وسيرة حياته وجهاده العظيم فى تبليغ الرسالة .. فاذا بنا أمام شخصية لم تعرف ولن تعرف الانسانية لها مثيلا ..

* **فهو يقول** : فى معرض حياته عن الرسول :

ـ كان محمد ذاته كسلوك وخلق وسيرة هو المعجزة التى تسعى على الأرض ..

وأن تبلغ ذاتك الكمال فى صفة واحدة فتنجز فيها وتتفوق فيها على

اقرانك .. فهذه هى العبقرية .. أن تبلغ الذروة فى الخطابة .. فأنت ديموستن .. وأن تبلغ الذروة فى الشعر فأنت بيرون .. وأن تبلغ الذروة فى الزعامة فأنت بركليس ، وأن تبلغ الذروة فى الحكمة .. فأنت لقمان .. وأن تبلغ القمة فى فنون الحرب .. فأنت نابليون .. وأن تبلغ الذروة فى التشريع فأنت سولون ..

اما أن تكون كل هؤلاء .. وأن تمنحك الأيام كل صفة فتبلغ فيها غاية المدى دون مدرسة أو معلم فهو الاعجاز بعينه .. وإذا حدث فانه لا يفسر إلا بأنه نبوة وعون من الله الوهاب وحده ..

وهذا هو برهانى على نبوة محمد ..

فها أنت ذا أمام رجل إذا تحدث كان أبلغ البلغاء ، وإذا نطق .. كان أفصح الفصحاء .. لا ينطق عن هوى ، ولا يتحدث عن حفيظة .. وإنما عن حكمة الحكيم .. وبصر البصير الملهم .. وهذه أحاديثه المجموعة تشهد لنا بأنها من جوامع الكلم ..

وبعد أن يحدثنا عن مواقف النبى الكريم فى المعارك العسكرية التى خاضها ضد كفار قريش ، وصموده الهائل فى بدر وأحد .. والأحزاب واليهود المتآمرين به فى المدينة .. ثم يرسم صورة لما كانت عليه شخصيته عليه الصلاة والسلام ..

ـ « وهذا محمد النبى وقد اجتمعت فيه كمالات بلغ فى كل منها الذروة ، فهو العابد المبتهل الذى يذوب خشوعا ويفنى حبا ، وهو المقاتل الصنديد الذى يتعرض لجحافل الموت ثابت القدم وألوف الأبطال والفرسان يفرون أمامه كالجرذان .. وهو المخطط العبقرى الذى يرسم الخطط فيتفوق على أهل الحرفة ، وهو السياسى الحاذق الذى يحرك المجاميع ويمسك بمقاليد المشاعر بمهارة المايسترو المبدع .. وهو المحدث الذى ينطق بجوامع الكلم ،

وهو الأب والزوج والصديق .. وهو صاحب الدعوة الذى يقيم نظاما وينشىء دولة من عدم (من قبائل وشراذم متفرقة لا تعرف إلا قطع الطريق والثأر والتفاخر بالأحساب والأنساب)..

وهو يؤرخ الأسرار المكاشف بالملكوت الذى يستمع إلى الله وملائكته كما نستمع نحن بعضنا إلى بعض بالغا ذلك القمة فى علوم الظاهر وعلوم الباطن معا فى الوقت نفسه .. وهو الكريم الحليم الودود الرءوف الصبور البشوش البسام اللطيف المعشر .. لا تمنعه الأعباء الجسام من ملاطفة الطفل والوليد .. فيحمله على كتفه راكعا وساجدا وقائما ، ولا من مغازلة زوجه فى حنان .. لا ينضب لعواطفه معين ، وكأنه يستمد من بحر هذه الذات هذه المعجزة .

وإجتماع هذه الكمالات فى ذات واحدة معجزة .. وليست عبقرية .. فالعبقرية هى أن تتفوق فى صفة واحدة فحسب .. اما أن تكون ذواتنا مجمع كمالات فهنا نبوة .. هنا أمر لا يمكن أن يكون إلا بمدد إلهى وعصمة وتوفيق وتمكين وإفاضة ممن عنده كنوز كل شىء .. وهذا برهان على نبوة محمد ..

إننا أمام ذات متفردة تماما ، مستوفية أسباب الكمال ، جامعة لأقصى الأطراف فى كل شىء ، فاعلة منفعلة .. نشيطة مؤثرة ، تصنع بطلا من رجل تلمسه .. وكأنما أثر السحر فى كل ما حولها ثم فيمن بعدها .. ثم فى التاريخ بعد ذلك من مستقبل إلى آخر الزمان ..

نحن لسنا اذن أمام ابراهام لنكولن ، ولا أمام جيفارا كما تصور أصحابنا قصار النظر .. دعاة الجدلية ودعاة العلمية بلا علمية .. نحن لسنا أمام مصلح اجتماعى .. ولا أمام ثورة اسبارتاكوس الاجتماعية .

لا .. هزلت تلك التشبيهات ..

بل ظلموا انفسهم .. وظلموا نبيهم .. ونقصوه وما قدروه بل نحن أمام ذات .. تسبح وتقدس من انشأها فى الأزل وبعثها للأبد رحمة للعاملين ، وصلى عليها فى عليائه ، تمجد وتبارك آياته ..

ـ « ان الله وملائكته يصلون على النبى ياأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما »..

(الأحزاب ٥٦)..

***

■ روح مشعة آسرة »

ويأخذنا الدكتور مصطفى محمود فى حديثه عن شخصية الرسول الآسرة ، وحب أصحابه له .. وتكتلهم حوله فى المواقف الصعبة ، وافتدائه بأنفسهم .. ثم يضرب لنا مثلا بهذه الروح الآسرة للرسول مع زوجاته .. ويضرب لنا مثلا بزوجة الرسول صفية .. وهى بنت زعيم اليهود فى شبه الجزيرة العربية .. وأعدى أعداء محمد .. حيى بن اخطب .. فيحكى قصة الحرب التى وقعت بين النبى واليهود .. فقد بدأ اليهود بالمؤامرات .. وانتهت مؤامراتهم بالحرب .. التى إنتهت بهزيمة اليهود وقتل زعمائهم .. وفيهم زعيمهم حيى بن أخطب .. والد صفية ..

بروح المفكر الباحث .. نرى الدكتور مصطفى محمود يحاول أن يجد اجابة لعلامة استفهام كبيرة ؟ كيف يمكن لصفية أن تعيش مع النبى وهو الذى قتل اباها .. كيف يأمن أن يعيش معها ؟..

وكيف عاشت معه وفية محبة له إلى أقصى الحدود ؟

ان ذلك يرجع إلى الروح الآسرة للمصطفى .. يحكى لنا مصطفى محمود حكاية صفية .. الذى تزوجها النبى صلى الله عليه وسلم فيقول : ومن هى صفية ..

انهم يقولون أن نسبها ينتمى إلى النبى هارون أخى موسى وانها إمرأة ذات اباء وكبرياء ، ولا تنسى الضيم .. وهذا زوجها كنانة بن الربيع لم تكد تمضى ساعات على قتله أمام حصون خيبر ..

ويبيت أبو أيوب خالد بن زيد أمام خيمة العرس ساهرا متوشحا سيفه .. حتى إذا أصبح الصبح ورآه النبى يطوف بالخيمة فيقول له :

- مالك ياأبا أيوب ؟

فيقول الرجل :

- يارسول الله خفت عليك من هذه المرأة .. لقد قتلت زوجها وأباها وقومها وكانت حديثة عهد بكفر فخفتها عليك ..

فيدعو له الرسول :

- اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظنى.

وقارىء السيرة يقف حائرا مأخوذا أمام هذا الزواج ..

كيف يمكن أن تنمو المودة والرحمة عبر هذه الأضغان والمواجد .. ؟

وكتب السيرة تجمع كلها على أن صفية أحبت الرسول .. وأن الرسول أحبها وانه كان يدفع عنها كيد حفصة وعائشة حينما يدعوانها باليهودية فتأتى اليه باكية فيمسح دموعها قائلا :

- كيف تكونان خيرا منى وأبى هارون وعمى موسى وزوجى محمد .

وفى مرض الرسول نراها تقف على فراشه هامة فى دموعها :

- وددت والله يا نبى الله أن الذى بك بى ..

فتتغامز زوجات النبى فيقول لهن الرسول :

- مضمضن ..

فيتساءلن فى دهشة :

- من أى شىء ؟

فيقول الرسول :

ـ من تغامزكن بها .. والله انها لصادقة .

ويموت النبى ولو كان فى قلبها ضغن لأظهرته حينما انقسم المسلمون وظهرت الفتنة وتآمر الناس على عثمان بن عفان .. ولكنها كانت أول من سارع إلى عثمان لترد عنه فلقيها الأشتر وهى فى حجابها على بغلتها فضرب وجه البغلة وهو لا يعرف راكبتها فصرخت فيه صفية :

ـ ويحك .. ردنى ولا تفضحنى ..

وتروى كتب السيرة انها أقامت جسرا بين منزلها وبين بيت عثمان لتبعث اليه بالطعام وهو محاصر ..

انها لم تحب النبى فقط بل أحبت الدين وافتدته إلى النسمة الأخيرة من عمرها ..

وهنا يقف القارىء المتأمل لاهث الأنفاس متسائلا وكيف .. كيف استطاع حبها ان يعبر ذلك البحر من الدم .. وان يغلب على يهوديتها وعنصريتها وارتباطها بقومها وأبيها وأهلها الذين سقطوا بسيف الاسلام ويد محمد ..

هنا لا تجد جوابا .. الا .. محمدا .. وروحه المشعة الآسرة .. وقلبه الطيب النبيل .. وتلك القوة القاهرة وذلك المدد الالهى الذى أمده الله به يغزو قلوب اعدائه فيطهرها من الشر والغل ويستصفى منها أحلى ما فيها .. هنا النبوة التى تفسر العظمة فنحن أمام قدرة غير بشرية ..

وحكاية صفية تدحض التهمة التى اتهم بها النبى فى ان علاقته بزوجاته كانت شهوة وان زواجه من تسع زوجات كان شهوة .. فالشهوة لا تطهر النفوس أبدا بل تزيدها ظلاما .. انما نحن أمام مودة وحنان ورأفة .. وما

كان زواج محمد بزوجاته إلا عطاء للمودة وتحملا للأعباء .. فكان يضم الواحدة ومعها عيالها وكلهن كن متزوجات ما عدا عائشة ..

فأى حمل وأى اعباء .. وان الواحد منا ليعانى من ازعاج امرأة واحدة وعيالها فيضيق صدره ويخرج عن صوابه .. فما بال هذا القلب يسع تسع زوجات بعيالهن وغيرتهن ومكائدهن وازعاجهن ومطالبهن المتناقضة .. أين الشهوة هنا .. انه بلاء وابتلاء لهذا القلب وامتحان لعطائه السخى الذى لا ينفذ وللحلم والصبر والوداعة والبشاشة فى تلك النفس الكريمة التى لا يعرف الغضب لها سبيلا ..

ودعونا نقف أمام هذه النفس المحمدية الصافية فى لحظة أخرى هائلة .. حينما نزل القرآن مؤكدا نفاق عبد الله بن ابى بن سلول ووقيعته بين الأوس والخزرج وفتنته بين المهاجرين والأنصار اذ يقول ابن سلول :

- لقد كاثرنا المهاجرون فى ديارنا والله ما أحسبنا واياهم الا كما قيل : سمن كلبك يأكلك .. أما والله لان رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ..

ثم قال لمن حضر من قومه .. هذا ما فعلتم بأنفسكم .. أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم .. أما الله لو امسكتم عنهم لتحولوا إلى غير دياركم .

وهى فتنة كان من الممكن أن تنسف البيت الاسلامى كله.

ونزل القرآن مؤكدا هذه الفتنة .. فأيقن الكل ان محمدا لابد مصدر أمره بقتل ابن سلول ..

فأسرع ولده عبد الله إلى النبى قائلا :

- يا رسول الله ان كنت فاعلا ذلك بأبى فمرنى به وانا احمل اليك رأسه .. فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبر بوالده منى .. وانى

لاخشى أن تأمر به غيرى فيقتله .. فلا تدعنى نفسى أدع قاتل أبى يمشى فى الناس فأقتل رجلا مؤمنا بكافر فأدخل النار ..

فبماذا أجاب النبى أمام هذا القلق النبيل بين حب الابن لابيه وحبه لدينه .. لقد أجاب فى هدوء :

ـ لا يا ولدى .. انا لا نقتله بل نترفق به نحسن صحبته ما بقى معنا ..

ولقد فعل النبى أكثر من ذلك .. فلما مات ابن سلول كفنه فى قميصه وصلى عليه ، واستغفر له .. فلما رجع من ذلك .. قال فى حزن والله ما يغنى عنه قميصى من الله شيئا .. والله لو علمت ان استغفارى له أكثر من سبعين مرة ينجيه لاستغفرت له ..

فمن يكون هذا الا نبيا ..

صلوات الله عليك يا محمد ..

ثم ينهى دراسته حول السيرة بحديثه عن مدرسة الرسول .. تلك المدرسة التى كان استاذها خاتم الأنبياء والمرسلين .. الذى أدبه ربه فأحسن تأديبه ..

أخرجت هذه المدرسة القادة الكبار الذين غيروا مسار الانسانية كلها .. عندما انطلقت الفتوحات الاسلامية الكبرى فى عهد الراشدين لتنشر نور الله وتغير خريطة الدنيا كلها مستنيرة بنور الاسلام الذى أخذ يغزو القلوب والعقول ويمد أضواء التوحيد إلى أماكن لم تكن تخطر على بال .. وهذا .. وعلى حد تعبير كاتبنا المفكر الاسلامى :

ـ وتلك هى اللمسة السحرية وما يفعله من نفخ الحياة فى الموتى وهوما لا طاقة يعظم من عظماء الدنيا ان يعمله ، بل هو النبى وحده المؤيد بقوى الغيب المحفوف بالعناية المحفوظ بالعصمة والتمكين ..

اشهد ان لا اله الا الله وان محمدا عبده ورسوله وخاتم انبيائه .. وحسبى من الحياة املا ان اتبع سنته وادعو دعوته وابعث فى لوائه واحشر على قدمه .. وصلوات الله وسلامه على مولانا وسيدنا محمد إلى آخر الدهر ..

***

■ عصر الصراخ

وربما الذى يشد الانسان إلى فكر مصطفى محمود .. انه لا يردد جملا ، ولا يكرر كلمات بلهاء لا معنى لها ، ولا يملأ صفحات كتبه بكلمات إنشائية ، او ترديد كلمات محفوظة منقولة من كتب التراث .. ولكنه إنسان يعيش واقع عصره .. وهو عصر عجيب يفصح كل يوم عن اكتشاف جديد .. وعلم جديد ..

وقارىء الصحيفة اليومية يرى كل يوم عجبا مما يحدث فى عالمنا فى مختلف المجالات .. تقدم علمى مذهل .. اكتشافات جديدة .. وعلى جانب آخر نرى الفن الجميل ، وآخر مبتذل ، وعلى المسرح تظهر جرائم عجيبة .. كل ذلك يجرى بسرعة عجيبة ومذهلة ، والأنفاس لا يمكنها أن تلاحق عالمنا بانجازاته الهائلة ، وعملقته الصناعية ، وتناقضاته الرهيبة فى نفس الوقت .

وفى الغرب نفسه حيث يسابق الانسان ظله لتشييد عالم جديد .. وحياة جديدة ، نرى من فلاسفة هذا الغرب من مل الحياة الحديثة ، وضاق بها ذرعا ، ورأى فى هذه الحضارة الصناعية السبب فى تعاسة الانسان المعاصر .. وما تراكم عليه من هموم وأحزان وآلام .. فإذا بهذه المجتمعات المتقدمة جدا حضاريا بها أكبر عدد من الأمراض التى نطلق عليها أمراض

المدنية .. سكر .. ضغط دم .. توتر فى الأعصاب .. بل ترى أكبر نسب من حوادث الانتحار .. كيف يحدث كل ذلك فى مجتمعات متطورة جدا .. أين هى هذه السعادة المزعومة التى حققها التقدم والآلة !!

ولم يكن عجيبا أن نرى حتى فلاسفة كبارا فى الغرب يلعنون هذه الحضارة ويعزون إليها كل الشرور والآلام الذى يعانى منها الانسان المعاصر .. بل ان منهم من هرب إلى افريقيا الذى تصور أنها مازالت تعيش على الفطرة .. أو لم تدنسها أمراض الحضارة المعاصرة .. فعل ذلك البرت شفاتيزر الحائز على جائزة نوبل .. فقد قرر أن يترك أوربا بضجيجها .. وأنوارها المتألقة .. وعرباتها الفارهة ليعيش فى قلب القارة السوداء .

هذه الظواهر يرصدها مفكرنا الدكتور مصطفى محمود ويقف أمامها طويلا .. ليست نظرة انبهار .. ولكن نظرة فيها تأمل عميق ..

ما سر تعاسة الانسان المعاصر .. ؟

وما هو الحل ليخرج الانسان من هذه الأزمة .. ؟

انه لا يفعل كما يفعل بعض الدعاة حين يرددون كلمات محفوظة تخرج من اللسان فلا تصل إلى قلب أحد .. !

ولكنه يحاول أن يعرف العلل .. ليصل إلى العلاج-فحضارة الغرب حضارة عرجاء .. لأنها تسير برجل واحدة .. إنها حضارة لا يمكن مع ذلك أن تتجاهلها لأنها الحضارة التى اخترعت الدواء .. واخترعت السيارة والطيارة .. وتسبر أغوار الفضاء .. ان هذه الحضارة إذا حاولت أن تخلق فردوسا على الأرض فقد ضلت طريقها لأنها اعتمدت على الجانب المادى فقط ونسيت الجانب الروحى .. فأصبحنا نعيش ضجيج الآلة .. ولا نسمع همسات الروح .. غرقنا فى بحار الحسية ، ونسينا رحيق الروحانية .. اننا

عشنا حياة الصخب أو الصراخ .. هذه الحالات يجسدها الدكتور مصطفى محمود بقوله :

نحن فى عصر الصراخ .. مدنية اليوم اسمها بحق مدنية الصراخ .. علاقة الحب صراخ .. علاقة الزواج صراخ .. وعلاقات المجتمع صراخ طبقى .. وعلاقات الدول صراخ سياسى ، والشعارات صراخ فكرى ..

والمذاهب تحريض علنى للاغلبيات على الأقليات ، والأقليات على الأغلبيات .. ولافتاتها المرفوعة هى الصراخ والهتاف والصياح والنباح .. والبيوت التى ترفع لافتة الحب على بابها .. تعيش حياة هى أقرب إلى الصراع على السلطة منها إلى تعاون المحبة والرحمة بين أزواج وزوجات .. حياة أقرب إلى صراخ يومى وتنازع حكم ورأى فى كل شىء .. وكأنما المطلب الذى يصحو به كل واحد هو من يحكم اليوم .. من يسود .. من يمسك باللجام ؟

وإذا أعوزت المرأة مبررات السيادة والقيادة التمستها بالغيرة ، واتخذت من الشك ذريعة حصار وسببا لايداع الزوج السجن ، واعلان أحكام الطوارىء فى البيت ليل نهار ، ومصادرة الخطابات والتسمع على التليفونات وتفتيش الملابس الخارجية والداخلية .. فإذا لم تعثر على جسم الجريمة ولم تضبط أحرازا .. فإنها تعلن أنه لابد من تفتيش الدماغ وكسرها إن أمكن بالقبقاب أو بالحجج الفلسفية حسب درجة ثقافتها ، وحسب حظها من التربية فى بيت أبيها .. فإن لم تجد شيئا فى دماغه ، فلابد أنه كان هناك شىء فى الماضى قبل أن يتزوجها .. لابد أنه كان على علاقة ما فى يوم ما .. فهذا هو شأن جميع الرجال الملاعين .. وجميع الرجال ملاعين .. إلى أن يثبت العكس ولا يمكن أن يثبت العكس أبدا ..

المهم أن يصل الحوار إلى صراخ وعويل ولطم وندب .. ومرة أخرى تتوقف ردود الفعل على حظ الزوجة من الثقافة وتربية البيت .

ودائما فى كل زوج هناك شىء ناقص .. إذا وجد الحب صرخت الزوجة لانها لا تجد كفايتها من المال ، وإذا وجد المال صرخت لانها لا تجد كفايتها من الحب ، وإذا وجد الاثنان صرخت لان الزوج له ما ضى ، وإذا وجد كل شىء التمست سببا للنكد فى حياة الأولاد .. المهم ان تصرخ وتفش الغل .. ودائما هناك غل بسبب وبدون سبب وكأنما الغل هو التراث الحضارى المشترك للنساء جميعاوصدق الله العظيم حين قال فى قرآنه عن أهل الجنة (ونزعنا ما فى صدورهم من غل) لان الغل هو السر فى الجحيم الذى نعيشه الغل فى المرأة وفى الرجل وفى الدولة . حتى الغل فى الضحك هو عنوان تعاسة .. الضحك المغلول والتهريج المخجل والمرح الوحشى هو الآخر عنوان افتعال .. محاولة مصطنعة لتغطية أصوات القلق والحزن الدفين واليأس الأكال فى داخل القلب بأجراس الضحك وبقرع الكؤوس المخمورة .

بهذه الصورة التى تشبه الاقصوصة يأخذنا الدكتور مصطفى محمود إلى صور من الحياة اليومية التى يعيشها الانسان المعاصر .. انه يعطى صورا للتعاسة التى يتعرض لها الانسان حتى داخل بيته .. والحصار المفروض عليه من الزوجة .. ومشكلات الحياة .. ثم يأخذنا فى رحلته متصاعدا بها إلى محاولة البحث عن الحل.والسؤال : ماذا يريد الانسان ؟ والاجابة يريد الطريق الذى يفضى إلى السعادة ! وهنا يبرز تساؤل آخر وما هو الطريق الذى يفضى إلى هذه السعادة ؟

لقد شرح لنا كيف يعيش الانسان محاصرا تعيسا .. وكيف نفرض عليه هذه التعاسة رغما عنه .. ؟!

ويظل السؤال يلف ويدور .. ما هو الطريق إلى السعادة ؟ .. أو على الأقل إلى حياة بعيدة عن (دوشة) الدماغ .. إلى الراحة النفسية .

يقول الدكتور مصطفى محمود :

والسعادة الحقة لا يمكن أن تكون صراخا ، وإنما هى حالة عميقة من حالات السكينة تقل فيها الحاجة إلى الكلام وتنعدم الرغبة فى الثرثرة .. هى حالة رؤية داخلية مبهجة واحساس بالصلح مع النفس والدنيا والله ، واقتناع عميق بالعدالة الكامنة فى الوجود كله ، وقبول لجميع الآلام فى رضى وابتسام.والسعادة الحقة نوع من أنواع شهود الله فى آيات عظمته ، او كما يقول محمد بن عبد الجبار : هى شهود (مالا ينقال) يقول لك ذلك الصوفى :

ان لم تشهد (مالا ينقال) تشتت بما ينقال . وتوزعت بين آلاف المقولات والمغريات .. وتعلقت بما لا يدوم وبما لا يثبت للحدثان .. كما تتعلق الموجة بالموجة ، وكما يتعلق المتحرك بالمتحرك .. والناقص بالناقص ، والزائل بالزائل .. والمنهدم بالمنهدم .. وهو مثل لجوء الخراب إلى الخراب ، والخراب لا يصلح ملجأ .. ولهذا ينتهى أمرك إلى الخيبة والفشل .

ولهذا لا يصح التعلق إلا بالله ، لانه هو وحده الثابت الصامد (الصمد) الذى لا يتغير ولا يتقلب ولا تلحق به العوارض .

وبين يدى الله السكينة هى الحال،والصمت هو المعرفة لان المطلق لا تسعه عبارة ولا تحيط به حروف . فالجهل هو عين معرفته والصمت هو عين ادراكه .

ولهذا يرى الصوفى محمد بن عبد الجبار ان الحب بمعناه المتداول هو :

ان تحتل امرأة عقل رجل وتسد عليه جميع أقطاره وتصبح شغله ومطلبه الوحيد . هو باب من أبواب الكفر والشرك .

ويقول الله للصوفى فى مخاطباته :

ان جعلت لغيرى عليك مطالبة اشركت بى فاهرب هربين:هربا من الغريم وهربا من يدى . ويستعرض المؤلف الامام الغزالى :

ويقول الامام الغزالى نفس الرأى فى هذا اللون من الحب الدارج انه سقوط بالهمة .. لانه يتعلق بهواء .. تعلق الزائل بالزائل .

ولهذا وصف القرآن العلاقة السوية بين الرجل والمرأة بانها المودة والرحمة ، ولم يسمها حبا ، وجعل الحب وقفا على علاقة الانسان بالله ، لانه وحده جامع الكمالات الجدير بالحب والتحميد ، وجاءت لفظة الحب فى القرآن عن حب الله وحب الرسول . وجاءت مرة واحدة عن حب المرأة على لسان النسوة الخاطئات حينما تكلمن عن امرأة العزيز وفتاها الذى (شغفها حبا) .. وهو حب رفضه يوسف واستعصم منه واستعان بربه ، وآثر عليه السجن عدة سنين .

وهى جميعا مؤشرات تكشف عن سبب الاحباط العام والتعاسة فى مجتمعات العصر وبيوته ، بسبب حب هو كفر .. وزواج هو أنانية ، وصراع طبقى هو حقد ، ومذاهب هى انتقام ، وشعارات هى كذب ، وعالم ضاعت منه المودة والرحمة ، وافتقد الايمان بالملجأ الحقيقى ، وأصبح شعاره لجوء الخراب إلى الخراب .

لجوء الشباب إلى الجنس والمخدرات الذى لا يختلف كثيرا عن لجوء أمريكا إلى العنف .. ولجوء اليهود إلى العنصرية ، ولجوء الطبقات المطحونة إلى أوهام المذاهب المادية ووعودها وتحريضها .. ثم محاولة اغراق الخيبة النهائية والفشل النهائى فى شعار ملفق ، او دعاية كاذبة ، أو مباراة كرة ، أو صراع ثيران او طبل وزمر ، ثم يعود فيغرق الفرد يأسه فى حب او

كأس ، او نوبة غضب او رفض لكل شيء .. او اتهام للكون وخالقه بالعبثية ، مع ان الكون كله من أكبر مجرة إلى أصغر ذرة ينطق بالنظام والاحكام والابداع ويشهد بالخطة .. وبأنه لا شيء فيه خلق عبثا .

ويرد على الماديين بقوله :

ويقول أصحابنا الماديون ان الكلام الكثير فى الله والدين ترف ليس هذا وقته ولا أوانه .

ويقولون : لسنا ملحدين ولا دعاة الحاد ، وإنما نقول فقط ان هذه المسائل غير مطروحة وان هذا ليس أوانها .

واقول لهم أنا : بل هى مطروحة بشدة وهذا أوانها .

اقول لهم : ان هذا الصراخ والصياح وخراب النفوس وتمزق الأرواح سببه الأول اعتقاد أصحابها انهم يعيشون فى عالم بلا إله .. وأنهم يبحثون عن عدل دون اعتقاد فى عادل .. ويحاولون النهوض بحياة يعتقدون أن مصيرها التراب .

وإذا صدقنا معهم اننا لا نملك إلا لحظتنا وحياتنا هذه ، فإنه لا يبقى أمامنا إلا أن نقاتل عليها فى بشاعة ، ثم نموت كلنا وندفن.السيد إلى جوار العبد ، وصاحب العمارة إلى جوار بوابها ، بدون معنى لكل تلك الضراوة والبشاعة التى تقاتلنا بها .

اعتقاد هو الخراب بعينه .

وحماسة تهزم نفسها بنفسها ، وتنقض نفسها بنفسها ، ولا تلد إلا نفوسا شائهة تصرخ وتصرخ بلا مقتض وبلا موجب مفهوم .

وقديما قالوا ان البيوت السعيدة لا صوت لها ، ولا أحد يتخذ منها مادة للكلام ، ولا أحد يروى عنها قصة او يكتب رواية او ينتج فيلما .. وفى رواية الحب التقليدية يسدل الستار دائما عندما يصل الحبيب والحبيبة إلى المأذون . لأن المؤلف يتصور حينئذ أن الكلام انتهى ، وانه لم يعد هناك ما

يقال : لأن السعادة بدأت .. والسعادة عنوانها الصمت .

فأين هى تلك البيوت السعيدة الآن ؟

ما أقلها ؟

والدكتور مصطفى محمود يرى ان المعراج إلى الكمال يكبح جماح النفس .. يكبح الشهوات والأهواء ، بذلك وحده يكون العتق الحقيقى

والدكتور مصطفى محمود يرى ان المعراج إلى الكمال يكبح جماح النفس .. يكبح الشهوات والأهواء ، بذلك وحده يكون العتق الحقيقى للروح وتحررها من سجن الجسد . ويضرب لنا مثلا بحديث قدسى ينسب إلى الصوفى ابن عبد الجبار :

يا عبد جعت فأكلت .. ما انت منى ولا أنا منك .. عطشت فشربت .. ما أنت منى ولا أنا منك . انا اظهرت الشهوات حجابا عليك لأمتحن محبتك ، فان اخترتنى دون جميع شهواتك كشفت لك عن ذاتك ، وما عدت استرك بشهوة .. إنما الشهوة تأتيك من ناحية جسدك ، أما ذاتك فقد خلقتها خالصة مبرأة لا تميل إلا إلى وحدى .

وكلها إشارات ورموز إلى الحقيقة .

فنحن لم نوهب الشهوة لنشبعها أكلا وشربا ومضاجعة وتكديسا للمطامع والثروات .. وإنما وهبنا الشهوة لنقمعها ونكبحها ونصعد عليها كما نصعد على درج السلم .

فالجسد هو الضد الذى تؤكد الروح وجودها بقمعه وكبحه وردعه والتسلق عليه .

وبقمع الجسد وردعه وكبحه .. تسترد الروح هويتها كأميرة حاكمة ، وتعبر عن وجودها وتثبت فنها ، وتستخلص ذاتها من قبضة الطين ، وتصبح جديرة بجنتها وميراثها .. وميراثها السماء كلها ، ومقعد الصدق إلى جوار الله .. وهذه هى السعادة الحقة .

■ حذار من تيارات العصر !

لأمر يجهله الكثيرون .. وباسم الفكر والتحرر والانطلاق .. وباسم ضرورة الانطلاق إلى حضارة العصر ومدنية العصر ، انطلقت صيحات ظاهرها الرحمة وباطنها من قبله العذاب .

موجات كثيرة هبت على عالمنا الاسلامى مطالبة بإقامة جسور بين الحضارة الغربية وحضارتنا .. وطبعا ليست هناك ندية بين حضارة الغرب المتقدم جدا ، وحضارة الشرق المتخلفة .

ولا بأس أن نأخذ من الحضارة الغربية ما يروق لنا ، وما يساعدنا على النهوض والتقدم .. نأخذ منها العلوم التجريبية ، والرياضيات ، والاستخدامات العلمية ، ولكن علينا أن نحذر من الفكر الأوربى وتياراته ونأخذه على ما هو عليه .. ! أو حذار بما نطلق عليه الغزو الفكرى .

وطبعا ليس كل فكر الغرب يعتبر غزوا فكريا .. بل علينا أن ندرس الفكر الغربى بتياراته وفلسفاته المختلفة ، ولكن لا نختار منه إلا ما ينفع الناس .. وإلا ما يساعدنا على التطور والنهوض ..

فما أكثر الأفكار الغربية التى تلبس ثوب العلم والفكر وهى سم زعاف ، ولا تجنى البشرية من ورائها إلا كل ما من شأنه نشر الحزن والتعاسة والاكتئاب . وكم من النظريات العلمية روج لها اليهود فى العالم كله ، ومن يقرأ برتوكولات حكماء صهيون يعرف كيف استغل اليهود العديد من النظريات فى سبيل تحقيق هدفهم .. خذ مثلا قولهم :

– إن دارون ليس يهوديا ولكنا عرفنا كيف ننشر آراءه على نطاق واسع ونستغلها فى تحطيم الدين . ولقد فطن الكثير من المفكرين فى الغرب نفسه لهذا الدور الخطير لليهود فى الفساد والافساد باسم الفكر ، حتى أننا نرى

المؤرخ الكبير أرنولد توينبى يقول فى حديثه عن الماركسية وكارل ماركس :
ـ أحل كارل ماركس الحتمية التاريخية معبودا له محل يهوه إله إسرائيل ، وجعل من البروليتاريا الداخلية للعالم الغربى شعبه المختار مقام اليهود ، وجعل من ديكتاتورية البروليتاريا مملكة المسيح .. وقد برزت السمات اليهودية من خلال هذا الرداء المهلهل .. !

واليهود هم الذين تحدثوا أيضا عن اهتمامهم بنظرية فرويد .. تلك النظرية التى تصبغ كل شىء بصبغة الجنس .. وقد جاء فى برتوكولاتهم :
ـ يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق فى كل مكان فتسهل سيطرتنا .. ان فرويد منا وسيظل يعرض العلاقات الجنسية فى ضوء الشمس لكيلا يبقى فى نظر الشباب شىء مقدس ، ويصبح همه الأكبر هو إرواء غرائزه الجنسية وعندئذ تنهار أخلاقه ..

وقد أعجبتنى دراسة قام بها عبدالحميد جودة السحار (وعد الله وإسرائيل) يلقى الضوء فيها على هؤلاء اليهود الذين يأخذون المذاهب والآراء التى يمكن بها هدم القيم الروحية ونشرها فى الشرق والغرب على السواء .. فهم قد روجوا لنظرية دارون ، ولنظرية فرويد ، ولنظرية نيتشة ونظرية إميل دركايم فى علم الاجتماع ..

نيتشة مثلا كان يردد مثل هذا الكلام السخيف ـ ان فكرة الله تسقط ظلال الخطيئة على براءة الأرض ، فانه لابد للمؤمنين بالحس الأرضى من أن يهووا بمعاولهم على تلك الفكرة !

ويقول نيتشة : طوبى لأنقياء القلب لأنهم لا يعاتبون الله .

لقد صرنا بشرا ولذا فإننا لا نريد إلا ملكوت الأرض ..

إلى أين مضى الله ؟

سأقول لكم إلى أين مضى ! لقد قتلناه .. أنتم وانا .. أجل نحن الذين قتلناه .. نحن جميعا قاتلوه .. ألا تشمون رائحة العفن الالهى ؟ إن الآلهة أيضا تتعفن .. لقد مات الله وسيظل الله ميتا !!

وتهللت اليهودية العالمية فرحا بمثل هذه الأقوال التى تنم عن تعفن أرواح الفلاسفة ، يخرج اليهود فى تحقيق مخططهم لافساد كل دين إلا الدين اليهودى وقتل كل إله إلا الههم الغيور ..

***

و .. ما أكثر ما نرى من أفكار الغرب الملحدة والمفسدة .. وآخر هذه الأفكار .. وجودية سارتر الفيلسوف الفرنسى الملحد .

.. هذه الأفكار الغربية لا ينبغى الترويج لها ولابد أن نتحصن ضدها بالعلم والايمان .. حتى لا ننخدع فى زيف هذه الفلسفات التى لم ترسم طريقا ، ولم تحقق أملا ، ولم تعالج مشكلة ، ولا حلت ألغاز الكون .. ولا لغز الانسان .. بل زادت العتمة ، ونشرت الظلام ، وجعلت الشباب يتخبط بأفكار يرددها كالببغاء دون أن يفهم هذه الفلسفات أو الهدف منها .

يقول الدكتور مصطفى محمود محللا هذه الظواهر والتيارات :

وعلى نهج فرويد فى تفسير سلوك الانسان بالحوافز الجنسية سار الفكر المادى الماركسى فى تفسير سلوك التاريخ بالحوافز المادية . ثم جاء هربت ماركوز ليستفز الشباب إلى حالة رفض مطلق وثورة مستمرة لتفجير المجتمع بعد أن تكاسلت البروليتاريا عن تلبية نداء الفكر الماركسى لتهديم البنيان الاجتماعى وأخلدت إلى الترف وإلى رشوة الراحة والبقشيش السخى الذى قدمته اليها الرأسمالية الغربية .

وليست مصادفة أن رواد تلك الأفكار المادية كانوا جميعا من اليهود ..

ثم سؤال على الهامش :

هل صحيح أن النظر المنصف إلى الوجود وتأمل الحياة فى موضوعية يؤدى بالانسان إلى حالة من الغثيان والقىء والعبثية والاحساس بعدم الجدوى ، ويخلف احساسا بأن الانسان قذف به فى الكون وترك وحده بلا عناية ؟

وهل صحيح ان الانسان يدور فى فلك أعضائه التناسلية ؟

وهل من الممكن تفسير جميع مراحل التاريخ بالصراع الطبقى ؟

وماذا نقول فى الصراع بين روسيا والصين وكلاهما نظام واحد وكلاهما بروليتاريا .. وصراعهما مع ذلك يشكل التاريخ .

وماذا نقول فى فدائى يموت فى فيتنام او القدس .. هل يدور فى فلك أعضائه التناسلية .. وهو الذى يضحى بجسده كله فى سبيل حق مجرد ومثاليات صرفة ؟

أما خرافة الغثيان والقىء والعبثية .. فهى عبثية عند سارتر وحده وقىء خارج من مناخ نفسى وحالة باطنية يعانيها هو .. أما الكون فهو برىء من العبثية منضبط أكثر من ساعة الكترونية ـ سواء نظرنا إلى الذرة وهى أصغر ما فيه أو إلى المجرة وهى أكبر عوالمه .

فى الذرة لا يستطيع الكترون ان ينتقل من مدار إلى مدار إلا إذا أخذ أو أعطى شحنة تساوى حركته من النواة او اليها .

وهذا هو حال الالكترون الذى لا يعرف له جرم من فرط صغره .

وفى المجرة العظيمة تولد الشموس وتشب وتشيخ وتموت وتتحرك فى افلاك وتدور حولها الكوكبات ، كل هذا يجرى فى دقة ونظام وفقا لهندسة مقدرة وقوانين ثابتة لا تخرق .

أما الانسان فلم يقذف به إلى الكون بلا عناية . بل العكس هو الصحيح .. فالعناية الالهية حفت به من لحظة ميلاده .. بل من لحظة تكوينه فى رحم أمه .. فالعناية سلحته بجميع وسائل الدفاع التى يحتاجها .. سلحته بالسمع والبصر واليد والعضل والحيلة والذكاء والعقل .

وفى المخ وحده عشرة آلاف مليون خط عصبى تنقل الاشعارات وردود الأفعال طول الوقت بلا خطأ وبلا عطل .

وفى الكليتين والرئتين والكبد زيادة وافية فى النسيج العامل تبلغ سبعة أضعاف الحاجة .. وهذه الزيادة هى الاحتياط « الاستبن » الذى وهبته العناية الالهية لمواجهة الأعطال والطوارىء المحتملة .

ويموت فى الساعة من جسم الانسان ستون مليون خلية ، تتجدد فى نفس الوقت فى تلقائية ودقة ونظام بديع ..

وفى الخلية الواحدة التى تبلغ فى صغر حجمها واحدا من الف من الملليمتر .. فى داخل هذه الخلية الدقيقة نرى بالمجهر الالكترونى مصانع ومخازن وجهازا لتوليد الطاقة « وأرشيف » ومخا آليا لتنظيم هذه الأنشطة المختلفة .. كل هذا داخل صندوق هو جزء من الف من الملليمتر .

ان لم يكن هذا هو منتهى العناية من الخالق .. فماذا يكون ؟ وماذا يكون كلام سارتر عن العبثية فى الوجود وعن الانسان الذى قذف به فى الوجود بلا عناية ؟ إلا الجرأة على الحق بعينها ، وإذا كان مراد سارتر بالعبثية هو ما يجرى على الانسان من مرض وشيخوخة ، ثم موت ، وما يجرى على الحياة من كوارث وأوبئة وزلازل وبراكين وطوفانات وحروب مهلكة ، فهذه كلها أمور عارضة ونحن نمرض ونصح . وبدون المرض لا نعرف الصحة .. والمرض هو الاستثناء والصحة هى القاعدة .

والزلازل والبراكين والطوفانات حوادث استثنائية وكل منها له وجه خير ومنافع وفوائد . وبالزلازل والبراكين تستعيد الكرة الأرضية توازنها كل عدد من السنين ، ولولا هذا التفريج والتنفيس المؤقت لانفجرت الأرض بالضغوط الهائلة فى داخلها .

والآلام والمشقات تربى الجلد والتحمل ، والمحن تشحذ العزائم كما تربى الأمراض الوقاية والحصانة .

والشر فى الكون كالظل فى الصورة يبدو من قريب عيبا ، فإذا ابتعدت بعينيك ونظرت إلى الصورة نظرة كلية اكتشفت أن هذا العيب هو ظل ، وانه جزء مكمل للصورة .

وفى هذا يقول ابن عربى : إن نقص العالم هو عين كماله ، كما أن اعوجاج القوس هو عين صلاحيتها ، ولو انها استقامت لانكسرت ولما رمت .. ثم ان عالم الدنيا كله عالم عارض زائل . ولذلك كان شره عارضا وزائلا ، وقد جعله الله مقدمة لخير باق فى الآخرة .

والموت ليس نهاية وإنما بداية لفصل آخر ، وحياة أخرى ... والحكم على رواية بقراءة سطر واحد منها لا يكون حكما صحيحا ، وإنما يجب الانتظار إلى أن تتم الرواية فصولا قبل أن نحكم عليها .

ثم هل يجب على الله أن يحقق السعادة للجميع . ولماذا ؟ وكيف نوجب على الله ما نجهل ؟ وكيف نلزمه بطرق تفكيرنا ووجهات نظرنا ؟

وهؤلاء الذين يريدونها جنة هل يستحقونها جنة .. وهم ينفثون فيها الشر والحقد والسم فى كل لحظة ؟

ويقول الغزالى فى ذلك ويؤيده فى رايه ابن عربى : ان الانسان لا يجرى عليه قضاء إلا من جنس استحقاقه .

« لا يظهر فيك ولا منك إلا عينك » .

بمعنى انه لا يجرى عليك من الحوادث إلا من جنس قلبك ونيتك وضميرك .

ويقول ميترلنك فى هذا المعنى : « جرعتك من الماء دائما تساوى سعة فمك .. أنت لا تقابل إلا نفسك فى الطريق .. إذا كنت لصا أسرعت اليك حوادث السرقة ، وإذا كنت قاتلا قدمت اليك الظروف الفرصة تلو الفرصة لتقتل » .

ان الله صاغ العالم على مقتضى العدل واختار بحكمته دائما أفضل الممكنات .

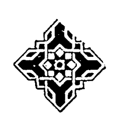
وتأمل الكون والحياة لا يكشف للباحث إلا الجمال والابداع والنظام والعدل والقانون . ولا توجد الفوضى إلا فى نظمنا نحن .

ولكن العيون التى فيها قذى ، والقلوب التى مالت عن الحق .. لا ترى إلا العبث والغثيان .. ولا تعمل إلا للافساد والتهديم .

هؤلاء هم فرسان الشر وطلائعه .

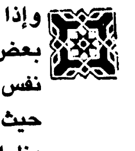
فلنقرأ كل ما يصل إلى أيدينا بحذر وبعقل ناقد ، فما أكثر ما يدس لنا من سموم يراد بها هلاكنا .

ولنثق دائما بان الله كله خير ، وبان مشيئته كلها رحمة .



الفصل الثاني

العلم يدعو إلى الإيمان



وإذا كان الدكتور مصطفى محمود يلقى الأضواء على ما في بعض التيارات الفكرية المعاصرة من زيف وباطل .. فهو في نفس الوقت يقدم برنامجه العلمي الشهير (العلم والايمان) حيث يبرز من خلاله عظمة الله في كونه من خلال مخلوقاته وظواهر الكون المختلفة ، وما تحوى من عجائب ، وقوانين .. ان دلت على شيء ، فإنما تدل على وحدة الخلق ، وعلى عظمة الخالق .

فهو مثلا يحدثنا عن الماء . أو هذا السائل السحرى .. الذى بدونه لا وجود للحياة . فالحياة هى نقطة الماء .

إنه هنا يدخل بنا إلى عالم العلم .. ويضع نقطة الماء التى بدونها لا وجود للحياة تحت مجهر البحث .. إن نقطة الماء عالم عجيب .. كون يعج بالأسرار .. ولا تملك وأنت تقرأ دراسته عن هذا السائل السحرى إلا أن تقول (لا إله إلا الله) .. إنه يكشف بعض مكتشفات العلم التى تجعل الانسان يحنى قامته ، ويسجد لله شكرا على ما منحنا من نعماء ، لا نعرف قيمتها إلا إذا فقدناها .. لا نعرف طعم الماء ولا قيمته إلا إذا شعرت بالعطش ، كما لا نشعر بقيمة الصحة ونراها تاجا على رؤوس الأصحاء إلا إذا مرضنا . لا نعرف قيمة البصر إلا إذا فقدنا البصر وكذلك لا نعرف قيمة أى حاسة من الحواس التى وهبها لنا الله كنوافذ نطل من خلالها لمعرفة

أسرار الكون والحياة ، إلا إذا فقدنا حاسة من تلك الحواس ، يومها نعرف أى نعمة أنعم بها الله علينا ، ولكنا لا ندرى .. فقد أخذتنا دوامة الحياة اليومية وغرتنا الأمانى .. فاذا بنا نيام لا يوقظنا إلا الموت ..

يقول الدكتور مصطفى محمود :

أما العلم فيقول لنا إن الماء هو أعجب المركبات على الاطلاق . فأكثر من ثلثى الجسم الحى بالوزن مؤلف من الماء . وثلاثة أرباع سطح الأرض مغطى بالماء .

وعندنا ٣٢٥ مليون ميل مكعب من الماء فى المحطيات وجليد القطبين . وثلاثة آلاف ميل مكعب من الماء معلق فى السماء على شكل بخار ، و ٢ مليون ميل مكعب من الماء فى جوف الأرض .

وبعض الكائنات تستطيع أن تعيش بلا هواء . ولكن لا يوجد كائن واحد حى يمكن أن يعيش بلا ماء .

والماء الذى تقول عنه الكيمياء إنه بلا لون وبلا طعم وبلا رائحة ، نعود فنصفه بأن له أعجب وأخطر الخواص فى دنيا المركبات .

فجميع السوائل تنزل إلى تحت بالجاذبية إلا الماء فهو يصعد إلى فوق ضد الجاذبية « بالخاصة الشعرية » . وبهذا هيأته طبيعته ليصعد فى جذوع الشجر والنخيل والنبات إلى أى مدى من النماء .. ولولا ذلك لما ارتفعت ساق خضراء فوق الأرض .

* وجميع السوائل تنكمش بالبرودة وتزداد فى الوزن إلا الماء ، فهو يتجمد بالبرودة ، ويخف فى الوزن .. ولذلك أمكن لصفائح الجليد البارد أن تطفو وتغطى مياه القطبين وتحفظ المياه تحتها دافئة « بالعزل » صالحة لحياة الأسماك والحيتان ، ولولا ذلك لماتت الحياة البحرية فى الشتاء وتحولت البحار إلى جمد مهلك .

* والماء بحسب تركيبه الذرى كان لابد له أن يتجمد فى درجة مائة تحت الصفر ويسيل فى درجة تسعين تحت الصفر ، هكذا تقول لنا علومنا الذرية .. وكان معنى هذا ألا يتواجد فى ظروف الأرض إلا على هيئة بخار .. ولكن الذى حدث أنه يتجمد فى الصفر ويغلى فى مائة ، وبهذا أمكن له أن يتواجد فى المكان الواحد من الأرض على هيئاته الثلاث ، بخار ، وسائل ، وصلب ، وهو أمر حيوى كان لابد من توافره لتقوم على الأرض حياة .

* والماء هو السائل الوحيد الذى يملك قدرات خرافية على إذابة الأشياء والتفاعل معها .. فهو يأكل الحديد . والصخر .. ونصف المركبات المعروفة وجدت ذائبة فى الماء .

* والجزىء المائى كما يشرحه لنا علم الطبيعة الجزيئية هو الآخر جزىء خارق مدهش .. فالأكسوجين ملتحم بالأيدروجين على طريقة العاشق والمعشوق ، والذرتان داخل بعضهما فى بعض .. والألكترون الوحيد فى ذرة الأيدروجين داخل فى ذرة الأكسوجين ، وله وظيفة فى مدارها .. مما أدى إلى استقطاب الجزىء استقطابا كهربائيا ، فأحد طرفى الجزىء موجب « وهو الطرف الأيدروجينى » . والطرف الآخر سالب « وهو الطرف الأكسوجينى » .

وهذه الصفة العجيبة جعلت من الجزىء شيئا أشبه بمغناطيس ، وجعلت الجزيئات تتماسك بشدة وتتجاذب كما تتجاذب عدة من المغناطيسات ، مما أدى إلى ظاهرة التماسك السطحى التى نسميها ظاهرة التوتر السطحى للماء Surface tention فيمكنك أن تضع شفرة حلاقة من الصلب برفق فوق سطح الماء فتطفو بسبب هذا التماسك السطحى الذى لايسمح لشىء باختراقه . وتكهرب الجزيئات المائية هو الذى يفسر الخاصة الشعرية Capillarity وهى الخاصة التى يتسلق بها الماء إلى أعلى ضد

الجاذبية ، والواقع أنه يتسلق بالجذب المغناطيسى بين ذراته وبين جدران الأوعية الشعرية . وبالتالى يجذب السطح المائى كله معه « لأن السطح كله متماسك » .

وهذه الصفات الكهربائية للجزىء هى السر فى قدرة الماء الخرافية على الاذابة .. لأن الطرف الموجب للجزىء يشد إليه الشق السالب من أى مادة ، والطرف السالب يشد إليه الشق الموجب فتنحل المادة إلى شقيها السالب والموجب ، وهو ما نسميه بالأيونات السالبة والموجبة وتتأين المادة .. أو تذوب بلغتنا الدراجة .

* وربما كان أعجب ما فى الماء قدرته على خزن وتصريف الحرارة . وكلنا نعلم من خبراتنا العادية أن قضيبا ساخنا من الحديد يمكن أن يبرد فى ثوان ، على حين يظل الماء ساخنا فى البانيو ساعات قبل أن يعود إلى برودته .

وهى صفة تصبح حيوية جدا حينما نعلم علاقة تبادل الطاقة بين مياه المحيطات والشمس .

فالمحيطات هى الغلاية اليومية التى تسخنها الشمس فتتبخر مياه المحيطات بالحرارة وتصعد إلى السماء .. ثم إلى أعلى .. إلى أجواء السماء الباردة فتتكثف سحبا . ثم تهطل أمطارا ، ثم تسيل أنهارا لتصب فى المحيطات من جديد .

دورة مائية يومية .

وتبلغ الطاقة الشمسية الحرارية المستخدمة فى هذه الدورة فى اليوم الواحد أكثر من كل ما أنتج الانسان من طاقة خلال تاريخه كله .

والذى يقتنص هذه الطاقة ويحفظها ويصرفها ويوظفها هو جزىء الماء العجيب .

والماء يتبخر من المحيطات ثم يعود إلى المحيطات من جديد فى كم كلى ثابت لاينقص ولايزيد .. وهذه معجزة أخرى .. فمنذ ثلاثة آلاف مليون سنة منذ بدء الماء على الأرض وكميته ثابتة لاتزيد ولاتنقص .. وربما كان الماء الذى تصنع منه اليوم كوبا من الليمونادة هو نفس الماء الذى « استحمت » به كليوباترة ، وهو ذاته الذى تمضمض به خوفو من آلاف السنين .

* والماء الذى اقتنص الطاقة من الشمس يعود فيصبح مصدرا للطاقة وتنظيم الطقس .. ثم يعود فيصبح مصدرا للطاقة من باب آخر هو مساقط الماء والشلالات والقناطر والسدود .

* والماء هو النحات اليومى الذى يقوم بتشكيل القارات والشواطىء والسواحل ، ويقوم بحفر مجارى الأنهار وقيعان البحيرات ، وهو الرافعة السحرية التى تنقل الجبال وتمهد الوديان .

هذا ما يقوله علم الطبيعة والكيمياء والجيولوجيا عن الماء .. وما تراه العين المجردة من شأن الماء .

أما فى مجال البحث المجهرى وما يراه الميكرسكوب فى نقطة الماء فهو الأمر المدهش والمثير .

فنقطة ماء من مستنقع تحتشد فيها عدة آلاف من أصناف الأحياء وعدة ملايين من الكائنات الدقيقة من فيروسات وبكتريا وفطر وطحلب .. شعوب وممالك وأمم من الكائنات يأكل بعضها بعضا وتتعايش وتتعامل وتتنافس وتتسابق .. وكل ذلك فى نقطة ماء من مستنقع على كوكب هو ذاته أصغر من هباة فى الكون الواسع .

ليس عجيبا بعد كل هذا أن نرى الماء مذكورا فى القرآن فى ٦٤ موقعا على أنه نعمة كبرى يمن بها الخالق على عباده .

(وأنزلنا من السماء ماء طهورا) .

(ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات) .

(وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم) .

(وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض) .

(وجعلنا من الماء كل شىء حى) .

(خلق كل دابة من ماء) .

(خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا) .

(افرايتم الماء الذى تشربون . أأنتم انزلتموه من المزن أم نحن المنزلون) .

وفى أجمل الآيات يقول الله فى مبدأ الخلق : وكان عرشه على الماء .

وإذا اعتبرنا الآية تعبيرا بالمجاز عن عظمة الماء وخطره فالمعنى واضح فقد رأينا أن الحياة كلها عبارة عن محلول مائى وأن الماء هو وسيط الفعل الالهى فى المخلوقات جميعها فعرش الله وسلطانه وقبضته تتم كلها من خلال الماء .

أما إذا وقفنا عند الحروف واعتبرنا المعنى لغزا مما لا يعلمه إلا الله .. فإنه منتهى التشريف أن يجىء ذكر الماء مقترنا بالعرش الالهى . وهو تشريف قد رأينا أسبابه .

ألم نجد فى نقطة الماء الواحدة أمما وشعوبا وقبائل وملايين الخلائق مما لا ترى العين .

ألم نجد فى جزىء الماء البسيط معجزة تركع أمامها علوم الكيمياء والطبيعة والجيولوجيا وتحار فيها عقول العارفين .

هذا الجزىء الذى يخزن الطاقة ويفجر الحياة ويذيب الصخر وينحت

القارات وينظم الطقس . هذا اللؤلؤ المذاب والماس السائل الذى يجرى على حلق العطشان أحلى من القبل وأعذب من صرافة الخمر .

حقا .. ما احفل هذه الكلمات القليلة بالأسرار حينما ترتلها القلوب وتتامل العقول .

(وكان عرشه على الماء) .

***

المشهد الأخير : فى خاتمة الزمان !

الدكتور مصطفى محمود فى كتاباته ودراسته هو فى الواقع داعية باسلوب جديد .. وفكر جديد .. ووعى جديد .

انه يدعو الى الله على بينة وعلى علم .. متسلح بسلاح العلم .

فقد درس التاريخ الاسلامى ..

ودرس الفكر الاسلامى بشتى مدارسه .

وتابع التطور العلمى وربط بينه وبين الايمان كما أن دراسته للطب ، أتاحت له معرفة الكثير من أسرار الجسم الانسانى .. وكيف يعمل .. وماالذى اكتشفه العلم فى هذه القارة المطمورة فى أعماق كل منا .. وما الذى وقف العلم أمامها عاجزا حتى الآن وما هو مستحيل أن يجد له العلاج فى يوم من الأيام وهو لغز الموت .

بكل هذه الأسلحة دخل مصطفى محمود ميدان الدعوة الى الله بعقل متفتح ، وفكر مستنير ..

ولكنه مع ذلك درس التراث الدينى لمختلف الأجيال - إن صح التعبير -

فدين الله واحد .. ولكن عندما طال الأمد بين نبى ونبى دخلت الخرافات والخزعبلات ، وابتعد الناس عن أسس الدين السليم فانحرفوا

الى أن يأتى نبى جديد .. يصحح مسار الدعوة الى التوحيد ويضيف من التشريعات ما يحتاج إليها العصر الذى جاء فيه .

والتوراة كما نزلت على موسى عليه السلام .. كتاب من الله .

ولكن اليهود زوروه وزيفوه ، ووضعوا فيه مالم يجىء على لسان موسى .. لقد وضعوا فيه ما يتفق مع أهوائهم وأهدافهم فى الحياة ..

ومعروف أن اليهود عندما هزمهم بختنصر (بدخذ نصر) وأخذهم أسرى فى بابل ..

هناك أخذوا يكتبون التوراة ، ويزيفون فيها كما يشاء لهم الهوى .

والقارىء للتوراة يرى فيها العجب العجاب .. أنبياء زناة ، وأنبياء يفعلون مالا يمكن أن يتصوره خيال من بعد عن القيم والمبادىء النبيلة .. كل هذا نجده فى التوراة .

وقد ألف الدكتور مصطفى محمود كتابا عن التوراة وأوضح فيه ما زيفه اليهود ، وما دسوه على التوراة الحقيقية .

« يكتبون الكتاب بأيديهم ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله »

ويقول الدكتور مصطفى محمود :

والقراءة المتأنية للتوراة المتداولة لا يخرج منها القارىء بأنه أمام كتاب أوحى به الله . فالأنبياء الذين تعارفنا على اجلالهم واحترامهم نراهم فى التوراة عصبة من الأشرار .. سكيرين ولصوصا وزناة وكذابين ومخادعين وقتلة .. والله نراه يفعل الفعل ثم يندم عليه ويختار رسوله ثم يكتشف أنه قد أخطأ الاختيار .. وكأنه لا يدرى من أمر نفسه شيئا ولا يعرف ماذا يخبئه الغيب ونرى الله فى التوراة ينام ويستيقظ ..

ونقرأ فى سفر زكريا الاصحاح الثانى :

« اسكتوا يا كل البشر قدام الرب لأنه قد استيقظ من مسكن قدسه »

والرب فى التوراة يخلق العالم فى ستة أيام ثم يتعب ويحل عليه الارهاق فيستريح !

أما الأنبياء فقد قارفوا جميع الخطايا .

نقرأ عن نوح عليه السلام انه شرب خمرا حتى سكر وتعرى داخل خبائه . ورأى ابنه حام عورته فأخبر أخاه سام فجاء سام ويافث وسترا عورة أبيهم . فلما تيقظ الأب وعلم بالأمر دعا باللعنة على حام ونسله من الكنعانيين يكونون عبيدا لسام مدى الدهر .

والغرض السياسى هنا واضح بالنسبة لليهودى الذى كتب هذا الكلام فهو يدعو على أنبياء حام وهم الفلسطينيون والمصريون بأن يكونوا عبيدا للساميين اليهود وتحت حكمهم مدى الدهر .

ويورد النص :

والتوراة جعلت من هذا الشعب اللص السكير الزانى شعب الله المختار يعدهم الأرض من النيل الى الفرات .

فى كل مكان تدوس بطون اقدامكم يكون لكم من البرية ولبنان من النهر نهر الفرات الى البحر الغربى تكون تخومكم .

وقد اختارك الرب لتكون له شعبا خاصا فوق جميع الشعوب الذين على وجه الأرض وجعلوا من الرب طاغوتا دمويا يستبيح لهم جميع الأمم .

ويأخذنا مصطفى محمود فى رحلة شائقة عبر التوراة ويوضح للقارىء التناقضات التى بها ، والتى يستحيل أن تكون من عند الله . لأن كلام التوراة على أنبيائها يدل على أن هؤلاء الأنبياء كانوا أشبه بدراويش الحسين .

كل من ليس مسحا ونطق برؤيا فهو نبى .

وهذا يفسر لنا هذه الكثرة العجيبة ، ويفسر لنا هوان شأن النبى عند التوراة .

« قل للذين هم أنبياء من تلقاء ذواتهم اسمعوا كلمة الرب .. هكذا قال السيد الرب .. ويل للأنبياء الحمقى الذاهبين وراء روحهم ولم يروا شيئا ، أنبياؤك يااسرائيل صاروا كالثعالب فى الخرائب »

ومعنى الآية أنه كان هناك غير الأربعمائة نبى أنبياء كثيرون آخرون مدعون « وأنت ياابن آدم فاجعل وجهك ضد بنات شعبك اللواتى يتنبأن من تلقاء ذواتهن » .

وكانت هناك مدعيات نبوة أخريات ، لقد اختلط الحق بالباطل ، والزائف بالأصيل .

والتوراة التى بين أيدينا هى شاهد عدل على هذا التشويش ، لقد أصبح القارىء يواجه منتدى من الأنبياء يزيد ادعياؤه على الألف نبى ونبية .

وبعد أن يوضح لنا الدكتور مصطفى محمود تناقضات التوراة وتزييفها للحقائق .. ومن خلال النصوص الواردة فى التوراة ، يحدثنا فى نهاية فصول كتابه عن نبوءات آخر الزمان ..

ويقول :

ـ لاتذكر مصر فى التوراة إلا ويتهددها رب اسرائيل بالويل والثبور وعظائم الأمور .. وتكاد تكون التوراة منشورا سياسيا ضد مصر .

وتهاجم التوراة المسلم والمسيحى .. وترى أنه سوف تلحس الشعوب والأمم فى آخر الزمان تراب نعل حذاء اسرائيل.فلا رب إلا لاسرائيل.ولا رب للشعوب والأديان الأخرى.والرب لايفكر إلا فى مصلحة شعبه الحبيب اسرائيل ..

أما الباقون فعليهم أن يلحسوا غبار نعل حذاء اسرائيل !

والدكتور مصطفى وهو يحلل التوراة يرى أن إثبات التحريف فيها شىء سهل بسيط .. فإثبات التحريف لايحتاج إلى أدلة من الخارج .. فالتوراة نفسها تعطيه المفتاح .. وتعطيه الأدلة على تحريفها :

ونسوق أمثلة :

اسمع داود فى المزايد الاصحاح ٥٦ يقول :

« ماذا يصنعه بى البشر .. اليوم كله يحرفون كلامى »

وأرميا :

قال الرب لى بالكذب يتنبأ الأنبياء باسمى لم أرسلهم ولا أمرتهم ولا كلمتهم بالرؤى الكاذبة ومكر القلب يتنبأون .

(أرميا ١٤)

أما وحى الرب فلا تذكروه بعد
لأن كلمة كل إنسان تكون وحيا
اذ قد حرفتم كلام الاله الحى رب الجنود إلهنا

(ارميا ٢٣)

* هأنذا على الذين يتنبأون بأحلام كاذبة

(أرميا ٢٣)

و .. هكذا ..

ويختم الباحث الدكتور مصطفى محمود دراسته الممتازة عن التوراة قائلا :

أما نبوءات آخر الزمان الواردة فى التوراة عن ارتفاع شأن اسرائيل ، فالقرآن عندنا يتنبأ بمثلها بأن اسرائيل سيكون لها علو وطغيان فى اخر الزمان .. ولكن مع الفارق .. أنه سيكون علو ينتهى بهزيمة وخراب وتحطيم

لما بنت اسرائيل وعمرت .. وليس كما تقول نبوءات التوراة علوا إلى نصرة مطلقة وسيادة على العالمين إلى يوم الدينونة .

وفى مثل تلك النبوءات لاتصلح الأقلام حكما وإنما التاريخ وحده هو الحكم العدل ..

فليتوجهوا إلى ربهم الذى تصوروه لهم وحدهم .. رب اسرائيل

ولنتوجه نحن مسلمين ومسيحيين إلى رب كل شىء رب السماوات والأرض .. رب العالمين ..

وندع القلم لمن يحضر المشهد الأخير فى خاتمة الزمان ليسطر نهاية الكتاب بما يرى ويشهد ..

***



الفصل الثالث

الباحث عن الحقيقة



ولندخل الآن معا فى حوار مع الدكتور مصطفى محمود .. حوار هادىء عميق حينا ، ساخن صاخب احيانا .. حول العديد من قضايا الفكر الدينى والثقافة ، ونرى من خلال هذا الحوار رحلة عمر .. وعمق تجربة .. ومحصلة قراءات متعددة .. تعطى القارىء عن قرب صورة لهذا المفكر الاسلامى الكبير الذى جعل قلمه فى خدمة دينه وعقيدته ، وكرس حياته لخدمة المسلمين ، عندما بنى مسجده ليكون مسجدا للعبادة ، ومستشفى لعلاج المرضى من مختلف التخصصات باجور رمزية .. وكان ذلك هو التطبيق العملى لما جاء به الاسلام من قيم المودة والرحمة والتعاطف والتكافل الاجتماعى .. ومن خلال هذا الحوار سوف تتسع دائرة الرؤية ، ونرى عن قرب إنسانا عشق الفكر الاسلامى ، وتعمق الأدب ، وهام حبا بالعلم .. ومن حصيلة كل هذا نرى إنسانا محبا لله ولرسوله وللمؤمنين .

***

■ ملاح يبحث عن شاطئ !

* الدكتور مصطفى محمود كاتب متعدد الجوانب .. فهو طبيب وأديب وعالم .. وقد مر بتجارب حية .. وخاض معارك فكرية متعددة .. وانتقل من الالحاد إلى الايمان .. بل دخل مرحلة التصوف .. ومن هنا تبرز فى الذهن علامات استفهام كثيرة .. ترى ماهو الطريق الذى سلكه بين الشك والايمان .. وما رأيه فى العوالم الخفية كعالم الجن والعفاريت.وهل هناك سكان فى الكواكب الأخرى .. و .. أسئلة كثيرة مثيرة يجيب عليها الدكتور مصطفى محمود بمنطق العالم .. وبهدوء المفكر .. وبخيال الفيلسوف .. ونحن نستعرض ذكريات حياته .. ونخوض معه تجربة عمره .. نشعر من خلال السطور بتلك التجربة الثرية التى مر بها كاتبنا الكبير .

***

■ طفولتى :

* استطيع أن أقول عنها فى كلمة واحدة الاحلام .. فهى كلها أحلام وجو أسطورى أعيش فيه .. ربما يرجع السبب أننى لم أكن الطفل القوى الذى يتنفس عن طاقة الطفولة فى النشاط البدنى .. فإذا فكرت فى شىء من هذا فإن الضرب مصيرى ، فكان حظى من اللعب هو الفرجة .. فلم يكن هناك مخرج للطاقة الحيوية التى عندى إلا الحلم والخيال والأسطورة .. وأنا لاأنسى أبدا حوش المدرسة الأبتدائية فى طنطا عندما كانت تنزل الأمطار وتحول الحوش إلى بركة .. فكان الأولاد يرشون على الماء .. أو يتزحلقون على الطين بينما أقومُ أنا بصنع زوارق من الورق والعب بها وأتخيل متى تأتى محملة بالعطور من الهند .. ولا أنسى منظر زوارق الورق وأنا جالس فى

حالة شعرية .. فطبعا هذا يعطيك اختلاف الزوايا .. فأنا أخذت زاوية من هذا الخيال الذى كنت أجوب به عالم الطفولة ..

* الموسيقى وعزف الناى .. ومولد السيد البدوى .. والصواريخ وليلة القدر .. كنت أحب عزف الناى .. وهويت أن أعزف على الناى وتعلمته باجتهادى .. وكان أول رفيق الطفولة هو « الناى » وطبعا كانت أولى محاولاتى تأليفا .. وجاءت هذه المحاولات مع أول قصة حب لى .. وكان عمرى ٩ سنوات أو عشر سنوات لبنت الجيران .. وكانت أسمها عدلية .. وكانت فى نفس المدرسة فى قسم البنات ..

وأنا أتذكر أن الأولاد والبنات كانوا يجلسون فى بئر السلم ويتناقشون .. كانت عدلية جميلة وكان كل واحد منا يحاول أن يظهر لها أنه فارس .. وكنت أتفوق عليهم جميعا .. لأنها كانت تحب الحكايات وكنت أخترع الحكايات من وحى اللحظة ..

فأحكى حكايات غريبة عن حوريات وأبطال وفرسان .. كنت أقلد أم كلثوم وأقلد الشيخ رفعت .. كنت أغنى وأقرأ القرآن فى نفس الوقت .. وكنت الوحيد الذى ألفت نظرها وأفوز بإعجابها .. ولم يجد الأطفال حلا إلا ضربى (علقة) حتى يتخلصوا منى ..

وأتذكر لحظات الحب فى هذه السن المبكرة .. حتى أتذكر أن قلبى كان يكاد يقف عندما أراها .. وكنت أهديها رواية شعر لشوقى .. وكان طبيعيا فى المرحلة التالية من العمر .. أن تكون هى مرحلة الزجل والشعر وتأليف القصة .. كنت أكتب الشعر .. وكان أول بيت شعر كتبته :

صرع الحب فؤادى فاشتكى   ماله من صاحب غير البكا

وأتذكر أن أخى الأكبر رأى هذا البيت فذعر وقال : إن أعظم الشعراء

مهنتهم التسول .. فهل أنت أكبر من المتنبى الذى عاش على التسول من قصور الخلفاء ..

لقد صدمنى أخى .. لهذا كرهت الشعر وأتجهت مواهبى نحو النثر ..

* فى بداية سنى المدرسة لم أكن تلميذا مجتهدا .. فقد رسبت فى السنة الأولى الابتدائية ثلاث سنوات .. وكانت درجاتى دائما هى الصفر .. وعندما يسألوننى فى البيت عن درجاتى أقول لهم : كالعادة . لم يرهقنى أحد فى الاسرة .. كانوا يضحكون ويستقبلون ذلك بروح رياضية .. ولم يكن هذا يرجع إلى غباء أو تخلف عقلى .. ولكن يرجع ذلك إلى أن المدرسين فى هذه المرحلة كانوا يتبعون اسلوب الضرب والتخويف .. كان حظى كل يوم مسطرة على يدى .. فطبعا كنت أرتعش طوال الدرس ..

وهكذا كان ينتهى الدرس دون أن أحصل شيئا .. نفس الحكاية حدثت قبل ذلك فى الكتاب .. فقد قطعت يدى من الضرب فى كتاب الشيخ محمود .. فكانت النتيجة أننى كنت أنزل من البيت للذهاب إلى الكتاب ، وأهرب إلى البحر ومعى (السندوتش) .. وارجع إلى المنزل فى وقت رجوع الكتاب ..

.. فكانت سنوات الدراسة الأولى صراعا مع الخوف واستغراقا فى الحلم والخيال والاسطورة وميلا إلى الانطواء .. لكن مع الوقت ومع مضى السنين حاولت أن اصارع هذا الخوف وأغلبه .. واستطعت أن أستأنف دراستى الابتدائية بدون رسوب أو تخلف .. فى هذه المرحلة كانت تستهوينى علوم الكيمياء .. الفلك .. الطبيعة .. كنا أيامها نأخذ نبذات صغيرة من هذه العلوم .. وعندما دخلت الثانوى ودرست هذه العلوم بتوسع أكثر أحببتها أكثر .. وعملت معملا فى المنزل وكنت أحضر فيه غاز ثانى أكسيد الكبريت والايدروجين والكلور .. وأكسيد الأزوت . وأتذكر أننى حاولت أن أقتل

الصراصير بغاز الكلور السام وكانت النتيجة أننى كنت سأموت ..

وأيامها كانت « بيجامتى » واضحا عليها آثار الأحماض .. وكانت أمى تعاتبنى على ذلك .. لكن كان هناك لون جديد من الأحلام يظهر وهو الحلم العلمى .. كنت أتخيل نفسى رجلا مخترعا .. أخترع أدوية جديدة ، ومواد جديدة ، وأصنع طائرات تذهب إلى القمر .. تحولت أفكارى إلى الخيال العلمى .. وأتذكر أننى اكتشفت نوعا من الصبغة تتأثر بالأحماض والقلويات استخرجتها من « التوت الأسود » وأسميتها صبغة « الكمال توت » ..

هذه الصبغة كانت تحمر بالأحماض وتزرق بالقلويات تشبه صبغة عباد الشمس .. وعملت منها ورقا كورق عباد الشمس واعتبرت ذلك اكتشافا خطيرا .. الحقيقة أن عناصر شخصيتى كلها تبلورت فى هذه المرحلة والتى تدور كلها حول حب العلم والفن والأدب ..

ومع البلوغ جاءت مرحلة التمرد والرفض فى قضية الأديان وأصبحت أناقش كل شىء بمادية متجردة .. وبدأت أعيد نظرى فى جميع الأحكام بطريقة صبيانية .. كان هدفى إعادة تقييم كل شىء .. وبذلك تبلور الخط الآخير الذى قدر له أن يحكم حياتى كلها فيما بعد وهو خط الفكر والتأمل والتفلسف .. وإعادة النظر فى قضية الدين سواء بالرفض أو القبول .. لقد استمر الرفض ربع قرن تقريبا ..

***

كانت شخصيتى تنمو فى كل هذه الخطوط فى وقت واحد .. مثلا بالاضافة إلى عزف الناى تعلمت العود .. ودرست النوتة العربى .. وكان هناك متعهد أفراح بالسيدة زينب كان مع كل فرح يطلبنى .. وكنت وقتها قد دخلت كلية الطب .. وفى نفس الوقت كتبت الشعر والزجل والقصة عند

العمل بالصحافة ، عندما كتبت فى مجلة الرسالة سنة ١٩٤٧ أول انتاج قصصى .. فكانت أمى تغضب على غضبا شديدا لطريقة حياتى تلك بين ترددى على الأفراح والكتابة فى الصحف وكيف أوفق بين العمل فى الصحافة والدراسة بكلية الطب .. فكان نتيجة ذلك أننى أخذت ملابسى وسكنت فى « بنسيون » فى حلوان وانقطعت عن الدراسة سنتين حاولت فيهما أن أستقل اقتصاديا وذلك عن طريق مرتب شهرى من جريدة النداء .

وكان مرتبى ١٢ جنيها .. وكان ختام هذين العامين أن سقطت مريضا بحمى التيفود والبارتيفود .. وزارنى أخى وأنا راقد بالمستشفى وأخذ يحدثنى عن حساب الأرباح والخسائر ..

كان بيننا عتاب رقيق وأنا على فراش المرض .. انتهى النقاش بأن أفعل كل ماأريد ولكن بعد التخرج .. وكان يحدثنى من مركز قوة وأنا من مركز الضعف فوافقته .. وأنهيت مرحلة التشرد وعدت إلى المنزل طالبا فى كلية الطب فى محاولة لأخذ البكالوريوس .. وكنت فى نفس الوقت أشتغل مع كامل الشناوى فى الجريدة المسائية .. ثم مع أسرة مجلة التحرير فى بداية انشائها سنة ١٩٥٢ ..

وتخرجت فى ديسمبر سنة ١٩٥٢ طبيب امتياز يحمل عودا ونايا وسماعة .. مليئا بالأحلام والشكوك والتفلسف ..

اشتغلت بالأمراض الصدرية إلى سنة ١٩٦٠ .. وكنت أعمل بروز اليوسف طوال هذه السنوات .. صدرت لى أول مجموعة قصصية سنة ١٩٥٤ « أكل عيش » ثم كتاب « الله والانسان » الذى صدر فى سنة ١٩٥٦ وانتهى حاله إلى المصادرة وانتهى حالى إلى المحاكمة أمام محكمة أمن الدولة التى أيدت مصادرة الكتاب ..

وأيامها قال كامل الشناوى قولته المشهورة :

ـ الناس يقولون أن هذا الكتاب كتاب الحادى .. وتقول عليك ملحد .. لقد قرأت الكتاب ورأيتك تلحد على سجادة ..

وهكذا استطاع الفنان كامل الشناوى أن يستشف المؤمن من وراء هذه الزوبعة الالحادية .. وهذه هى الحقيقة .. فلم تكن قصة الكتاب سوى رجل يتحسس طريقه .. وقصة ملاح ضال يبحث عن شاطىء ..

وكانت الكتب التى أعقبت هذا الكتاب هى تلخيصا لتلك السيرة .. وهذه الملاحة فى البحار وكانت خطوات رحلة فعلية من الشك إلى الايمان .

***

* كتاب لغز الموت ، لغز الحياة .. و .. صاحبها رحلة أخرى على القدم إلى غابات أفريقيا وإلى الصحراء الكبرى وإلى المدنية الجديدة فى أوربا .. وأثمر كل هذا مرحلة جديدة ، فاذا كانت المرحلة الأولى هى إعادة النظر ، فإن المرحلة الثانية كانت إعادة النظر فى إعادة النظر . وضمن هذه المسيرة كانت هناك مسيرة أخرى مع الفلسفة والأديان .. من أيام الهندوسية وكتب الغيدان الهندية وبوذا وزرداشت واليوجا .. وكانت لى جلسة طويلة مع اليوجا .. تعلمتها على يد السفير الهندى فى القاهرة « ابا بانت » ..

ولا أنسى فى ليلة كانت لى تجربة أشبه بالجلاء البصرى .. رأيت فيها الزميل الناقد جلال العشرى فى رؤيا منامية يسير مع الزميل شوقى عبد الحكيم فى شارع سليمان باشا يتكلمان فى مواقع نقدية .. ثم علمت انهما كانا فى نفس اللحظة لحظة الحلم يسيران بالفعل معا فى شارع سليمان باشا ويتكلمان فى مواضيع نقدية .. فكانت هذه الرؤيا شيئا عجيبا .. ولم يكن لها تفسير سوى ان الانسان يملك بالفعل وسائل للرؤيا والسمع غير عينية وأذنية ..

وقد حاولت ان أقوى فى نفسى هذه القوة بأساليب اليوجا ففشلت ولم تتكرر هذه التجربة .. ولكن حدث بعد شهور وحينما نشرت لى قصة قصيرة فى « صباح الخير » بعنوان « مادة الأحلام » ان جاءنى تليفون من قارىء يقول لى كيف تجيز لنفسك ان تروى قصة حياتى وتروى عنى كل هذه التفاصيل بدون أذنى .

ولم اكن أعرف الرجل وما قصدت أن أفضح أحدا .. وانما هو سهم من سهام الخيال انكشفت فيه مرة أخرى بارقة من بوارق الغيب المحجوب .. ومرة أخرى حاولت أن أقوى هذه القوى ولم استطع ..

ثم مرة ثالثة جمعت المصادفة مع صديق من الأصدقاء الذين يشتغلون بتحضير الجن .. ورأيت فى هذه الجلسة من الخوارق ما يقطع بوجود كائنات عاقلة غير منظورة معنا .

ثم مرة رابعة جمعتنا المصادفة بصديق من الذين يشتغلون بحساب النجوم فتنبأ هذا الشخص بأحداث وتفاصيل تحققت فيما بعد بدقائقها وفى أوقاتها .. وأزمانها .. وكانت نتيجة هذه اللحظات هى ما يمكن ان نسميه شكا فى الشك .. وقد شعرت بشعور من يقف على أرض ثابتة ثم انسحبت هذه الأرض من تحت قدميه فجأة فأصبح يجد نفسه واقفا فى الهواء ..

الصورة المادية التى صورها للعالم اتضح انها ناقصة كاذبة والتوصيف العلمى المادى للانسان لا يفسر الانسان .. والفلسفة المادية لا تفسر الحياة والغيب حقيقة ورب الغيب حقيقة .. لا يمكن تفسير أى شىء بدونه ..

وعدت إلى الدين والكتب السماوية .. وعدت اقرأ القرآن بقوة جديدة ، وكانت ثمرة هذا التحول سلسلة الكتب (القرآن محاولة لفهم عصرى) .. والكعبة .. محمد .. التوارة .. حوار مع صديقى الملحد .. رأيت الله .. وغرقت من التصوف ورجال الصوفية وطلاسم العارفين بالله .. وكتبت

كتابى « السر الأعظم » وأنا فى هذا البحر .. ولا أشك الآن فى أن علوم التصوف الاسلامى هى بحر عظيم تصب فيه جميع الجداول وتجد فيه كل المعارف وتكاد تكون أعظم ما أخرجته المكتبات الاوربية من مؤلفات (كانت) و (هيجل) وتكاد تكون كلها مجرد روافد من هذا البحر العظيم .

أنا دائما لى رأى .. وهو رأى الغزالى أيضا ليس فى الامكان ابدع مما كان .. ولو أن أى انسان حاول أن يعيد مشوار حياته فلن يستطيع ان يعيش إلا ما عاشه فعلا ، ولكن ايمان العجائز لا يناسب إلا أصحابه .. وهو ما كان يناسب الغزالى أيضا .. وقد اختار الله للغزالى الايمان الذى يناسب الغزالى ، واختار الله لى الايمان الذى يناسبنى ، واختار للأطفال الايمان الذى يناسبهم ..

والعدل الالهى هو ان نضع الحق فى مكانه .. ونجعل الرجل فى مكانه .. ونلبس كل انسان لباسه .. ونقول القول فى مناسبته .. فتلك هى الحكمة .. ولهذا لو عدت إلى طفولتى ما اخترت لنفسى إلا ما اختاره الله لى .

منتهى أمالى هو العودة إلى سنوات الصفاء التى عشتها فى بواكير التحول الكبير .. العودة إلى حياة التجريد والخلوة والانقطاع .. والعكوف على المعارف الالهية وهو أمر أجده الآن صعبا وأجد الدنيا تغلبنى وتأخذنى فى دوامتها ..

ويبدو لى أحيانا أن المسلم مطالب بأن يحمل راية الحق دون عزلة ودون خلوة ودون ان ينقطع فى غار أو يتجرد للعبادة فى مسجد .. وانما عليه ان يمارس ايمانه ويباشر دينه ويحمل شريعته وهو يخوض الدنيا ، ويكافح الزحام بكتفه .. والمشكلة هى كيف تنزل البحر دون ان تبتل ؟ وكيف تخوض فى أوحال الشهوات والمصالح والمغريات دون ان تلوثك ودون ان تسرقك من نفسك ؟ ..

ان الاحتفاظ بالطهارة هنا أصعب ألف مرة من الاحتفاظ بالطهارة أثناء الخلوة والتجرد والانقطاع .. لكن يبدو أن هذا هو الكلام المطلوب من الانسان .. ان يعبر بحر الدنيا دون ان يبتل .. وليس له ان يعتزل فى صومعة على الشاطىء .. وأعترف أننى دون هذا الكمال بكثير ..

ومنتهى أملى أن أحقق هذا الهدف .. وأن أخرج من بحر الدنيا دون ان ابل ، فإن لم استطع فأرجو أن أجد مهربا فى كوخ أو جب تحت الأرض .. فهذا أفضل وأرحم من الخروج من الدنيا مثقلا بالأخطاء ، وخطيئة العارف أفدح من خطيئة الجاهل .. فنطلب من الله السلامة .. .

حتى للفن .. وهو خط آخر يسير مع خط الفكر . حب الفن فى حياتى حقيقة كبرى ، وشيطان الفن مازال يعابثنى وانا اسميه شيطانا .. لأن الفن دائما يحمل للانسان الخيلاء والغرور .. والاحساس بالنفس والشهرة والقدرة على التأثير فى الآخرين والشعور بأنه يخلق شيئا .. يقول ربنا عن الشعراء فى القرآن انهم فى كل واد يهيمون وانهم يتبعهم الغاوون ... وهذا الهيمان وهذه الغواية تجدها دائما صفات ملازمة لكل فنان : فهو دائما فى حالة « هيمان » .. واذا لم يذهب إلى الغواية جاءت الغواية إليه .. ثم هو بحكم كونه فى دائرة الضوء وأمام عدسات الكاميرات وفى عيون الجماهير . وتلك كلها مزالق الشيطان يتعرض لها الفنان . ولكن الفنان فنان ولا يستطيع أن يكون غير ذلك .. وقد ظل الشيطان شيطان الفن يعابثنى ولا يزال .. فأجدنى اعود للكتابة فى القصة .. وفى الرواية والمسرح .. وهذه المرة احاول ان اطوع الفن والدعوة البريئة والهدف الدينى ..

وآخر ما كتبته مسرحية بعنوان (يوم القيامة) .. ومسلسلة بعنوان المسيح الدجال .. وتدور احداث الرواية فى الجنة والنار .. فهى نوع من

الكوميديا الالهية العصرية .. ونوع من رسالة الغفران .. ولكن تتناول ابطال عصرنا وما سيجرى لهم فى الجنة والنار .. وهو مرة اخرى تطفل شيطانى من الاديب الذى يصور له شيطانه انه يعلم مصير الناس فى الآخرة .

ثم كتابى الاخير نقطة الغليان .. ولا ادرى هل استطيع ان اطوع الفن مثلا للدين أم ينجح ان يطوعنى هو لشيطانيته .. ومرة اخرى نرجو من الله السلامة ..

مازلت أعزف العود احيانا .. واستمع إلى صوت فيروز وإلى موسيقى باخ وبيتهوفن وشوبان .. وتدور بينى وبينه وبين عبدالوهاب المساجلات المستمرة عن الاغنية واستقبالها .. وبهذه المناسبة سوف يلحن عبدالوهاب مسرحية يوم القيامة وينتجها للتليفزيون .. وجزء من هذه المسرحية يدور حول تسابيح الملائكة فى السماء .. وجزء آخر يدور حول عبث الشياطين وأغانيهم وفنهم فى الدنيا .. وسوف يغنى عبدالوهاب هذه التسابيح بصوته ..

***

■ سكان الكواكب :

* رأيى ان هذا الامر مؤكد وهو أكثر من احتمال مرجح ، لأنه يتناسب مع العظمة الالهية ومع اتساع الكون .. ومع وصف الله بأنه رب العالمين .. انه يوصف دائما رب العالمين .. والعالمون لفظ جمع .. ثم ان القرآن يتحدث عن السموات السبع .. وان الله خلق من الارض مثلهن .. يعنى سبع اراضين .. ونحن لا نرى حولنا الا سماء واحدة ثم الآية القرآنية : « ومن

آياته خلق السموات والارض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم اذا يشاء قدير » .

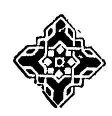
معنى هذا .. ان السموات فيها دواب (غير الملائكة لأن الملائكة ليسوا دواب) .. ثم كلام الهدهد عن الله .

« يعلم الخبء فى السموات والارض » .. ويعنى هذا ان هناك خبئا فى السموات يحاول ان يخفيه اصحابه ولكن الله يعلمه .. ثم ان الله يكشف لنا فى مملكة الاحياء ظاهرة التنوع والتعدد .. فنرى من الفراش وحده ملايين الاصناف والاجناس ولا يشبه فراش فراشا اخر ، وترى مثل ذلك فى مملكة العناكب ..

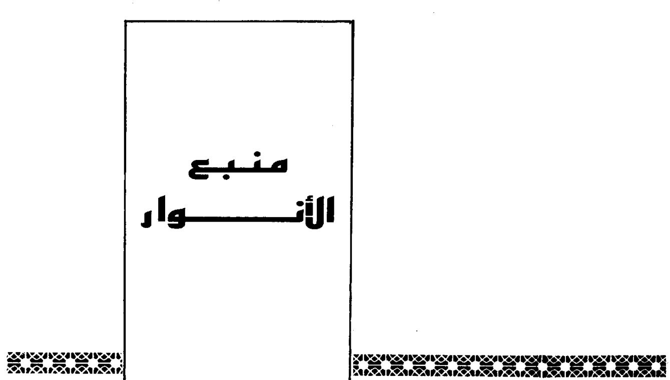
وحتى فى اى نوع من النباتات مثل العنب الفيومى والبناتى وجناكليس الخ . وفى القطن نجد طويل التيلة وجيرة ٧ .. فمن باب اولى ان يظهرنا ربنا على تنوع اوسع واشمل فى السموات .. فهذا يتلاءم مع سعة ملكه ..

يقول العارفون بالله : « ليس فى السموات شبر واحد يخلو من ملك ساجد أو ملك راكع » .

وليس بمستغرب ابدا ان تكون هناك عوالم مسكونة ..



الفصل الرابع



منبع الأنوار



*** بدلا من الانشغال فى المفاضلة ما بين عبد الناصر والسادات .. يجب أن نشغل انفسنا بمشاكلنا الحالية المعقدة .. فقد انتهت مرحلتا عبد الناصر والسادات ، واصبحت أساليبهما فى الحكم ، لاتلائم مشاكل مصر اليوم .. لأن ذلك يحتاج إلى تفكير مختلف يهتم بمشاكل الاقتصاد والانتاج ، وهو ما يركز عليه الرئيس حسنى مبارك حاليا ، وارى انه موفق فى ذلك ..**

تلك نقطة من نقاط الحوار السياسى الساخن والذى أجرته آخر ساعة مع المفكر الكبير الدكتور مصطفى محمود ، والذى تنشر آخر ساعة الجزء الأول منه ويليه جزءان آخران يناقش فيهما قضايا الدين .. والعلم .. والأدب .. والفكر الاسلامى والصوفى .

* ليس هذا حوارا بقدر ما هو شهادة للتاريخ .. فالحديث مع كاتب وأديب ومفكر مثل الدكتور مصطفى محمود ليس مجرد دردشة للحديث حول بعض القضايا وينتهى أثرها بانتهاء الحديث .. ولكن الحوار يدخل فى اطار شهادة للتاريخ .. ورؤية لعصر ، ووجهة نظر مفكر للأمور والحياة .. حتى لو اختلفت معه فى وجهات النظر ، أو تقييم الأحداث ، لأن التاريخ فى النهاية هو تجميع لوجهات النظر المختلفة والتوفيق بينها من خلال رؤية المؤرخ للأحداث ..

والرجل قدم للمكتبة العربية العديد من المؤلفات منها ما له طابع سياسى ، ومنها ما له طابع دينى ، ومنها ما له طابع أدبى .. ومهما اختلفت هذه الكتب وتنوعت فهى تبلور فكر أديب فنان عايش الأحداث ، وتأثر بها وأثر فيها .. وبالتالى تستحق الوقوف عندها والدوران حولها ، واستخراج ما يمكن استخراجه للانتفاع به فى مسيرتنا نحو مشارف الغد والمستقبل ..

كان جالسا فى صومعته .. فهو رجل (خلوتى) أى محب للخلوة على حد تعبيره .. عندما ابتدرته :

- أريد أن اقتحم عليك خلوتك

وابتسم قائلا : ماذا وراءك ؟

قلت : حديث بعيد عن أن يكون تقليديا .. أنه حوار ساخن حول أهم القضايا التى تشغل بال مجتمعنا سياسيا وأدبيا ودينيا ..

ضحك وقال : هات ما عندك .

* * *

■ الحرب الإيرانية العراقية :

قلت : هذه الحرب المسعورة .. اللامفهومة بين ايران والعراق .. ما رؤيتك لها .. وهل هى حرب سياسية أم حرب دينية ؟

قال الدكتور مصطفى محمود :

- أنا أحس أن ما يحدث فى ايران سياسة أكثر منه دينا ، لأن الوسائل .. والطرق الدموية الموجودة عند الناس .. خاصة أن الشحنة العنصرية الفارسية فيها واضحة ضد العرب ، كما أن الخومينى بدأ حياته بالهجوم

الفظيع على كل الدول الاسلامية حوله ، كما لو أنه يريد أن يعمل فتحا اسلاميا للمسلمين ، الشيء الثانى أن الأطماع تجاوزت مجرد استرداد قطعة من الأرض كان متصارعا عليها ، أو معاقبة العراق .. تجاوز كل ذلك لمعاقبة العالم العربى كله .. ويريد السيطرة وفرض الحكم الشيعى والرأى الخاص للخومينى على المنطقة كلها .

أنها محاولة بعث للامبراطورية الفارسية تحت نقاب إسلامى .. أو نوع من الثأر لهزيمة الفرس على يد سعد بن أبى وقاص فى معركة القادسية ..

أنه يستخدم رموز الاسلام للوصول إلى أهداف توسع .. أنها أحلام امبراطورية .. لأن الدين لايمكن أن يكون بهذه الدموية التى نشاهدها فى هذه الحرب ..

- هل هناك حل لهذه المشكلة من منطلق إسلامى ؟

- كان هذا دافعا للحد من أطماع الخومينى ، ولكن لأن العرب منقسمون لدرجة أن هناك أقوالا أن بعض الدول الخليجية تعطى لخومينى فى نفس الوقت الذى تعطى فيه العراق ، كما أن هناك دولا أوربية تقوم بتسليح كلا الطرفين المتقاتلين .. فانقسام العرب وضعفهم .. بل بعضهم مع ايران كسوريا وليبيا واسرائيل . كلهم فى خندق واحد .. ومصدر السلاح الأول هو اسرائيل .. وهذا شجع الخومينى .. لأن معه جبهتين عربيتين ، ولو كان العرب متحدين لما كانت هناك هذه الشراسة الايرانية ..

- ولكن ما هو الحل ؟

- إن الرجل .. اعنى الخومينى والذين يتبعونه تحس انك لاتستطيع أن تصل معه إلى انصاف حلول لا هو .. ولا الشباب حوله .. كله اندفاع مهووس .. ياخذ شكل رموز اسلامية .. كربلاء .. والنجف .. والحسين .. انه يصعب التفاهم معه .. ولاحل لهذه المشكلة إلا

بالقضاء على آلة الحرب الايرانية .. كما حدث لهتلر .. فلم يستسلم هتلر إلا بعد ان قضى الحلفاء على آلة الحرب .. وهذا شيء مؤسف .. أن نحشد كل الطاقات لضرب بعضنا البعض .. وقبل هذا .. أى قبل تحطيم آلة الحرب وهى مكلفة جدا والخسائر هى احد احلام اسرائيل .. نرجو ان نصل إلى حل إسلامى بالتفاهم ورغم صعوبته .. إلا أنه ممكن باتحاد العرب .. بالضغط .. بالتهديد .. من الممكن القوى الكبرى تقتنع به وانه ليس من مصلحتها هذه الحرب ، ولكن هذه الحرب للأسف فى مصلحة الدول الكبرى وليست ضد مصالحها .. لأنها تمدهم بالسلاح ويشغلون مصانعهم .. كل الايرادات البترولية بدل ان تتحول إلى مصلحة العرب تصبح عدما .. وكل هذه منافع ..

***

العلم عاجز عن تفسير النفس الانسانية .. والمصير والآلم .. انما كل ما يستطيعه العلم أنه يعرفنا بالبيئة معرفة أحسن واتم بحيث يمكننا الاستفادة بها ..

فالعلم مجاله محدود .. لا يمكنه أن يفسر أزمة النفس الانسانية ..

إذن لابد أن تلجأ الى شيء آخر غير العلم .. لابد أن تلجأ الى علم النفس والفلسفة والاديان القديمة بدءا من الفيدات وزرداشت وبوذا الى آخر كتاب سماوى وهو القرآن الكريم .

وإذا انصفت وقرأت بحياد سوف تكتشف أن القرآن يجبها جميعا ويحتوى عليها .. ويضمها تحت عباءته ويضيف .. وهذه أشياء سوف تعرفها بعد رحلة من الاخلاص وهذا هو الخط الثانى ..

والخط الثالث : سوف يجيب عليه من يصدقنا ويمشى معنا فى الطريق .. سوف تحدث داخله تغيرات تؤكد أنه سار فى الطريق الصحيح .. هناك أشياء لا يدركها الانسان إلا إذا سار فى هذا الطريق .. انه سوف يشعر بعالم السكينة .. وتزداد انتاجيته .. ويشعر بالوقت المبارك .. ويستفيد من الوقت ..

ويصبح عنده القدرة فى أن يحكم نفسه .. وأن يتحمل الآلم فترة الصبر التى تنمو فيه .. علاج القلق والأمراض النفسية كل هذه تتم بالخبرة عندما يسجد المؤمن سجوده التام .. انها بصمة الله سبحانه وتعالى ودليله القهرى الذى لا يناقش بأن الطريق الذى سرت فيه صحيح ..

* * *

* الخـــلود :

قلت له : وأنت تشرح فى برنامجك الناجح (العلم والايمان) نظرية النسبية .. وتعرضت لمشكلة الخلود .. وطبعا هناك أشياء لا يمكن ادراكها بالعقل .. ولكن كيف تتصور الخلود ؟

قال : هناك أشياء لا تتصور ولكنها تحتاج الى استشعار .. عندما تملك الحس الصوفى فأنك تحس بالتسرمد .. حسب نوعيات ودرجات الناس هناك من يعيش على مستوى الشهوات وهى لحظات يأكل بعضها البعض الآخر .. ويلى ذلك أهل العاطفة وأهل التأمل وأهل الاستشراق يمكنك أن تتذوق (تأبيد) اللحظات .. هذه حالة لا يمكن وصفها .. ويمكن أن اقول لك أننى لم أحس بها دائما ولكن فى لحظات الصفاء جاءنى هذا المدرك العميق .. وهى تجارب باطنية صرفة ..

ولكن واضح أن هناك عدة أزمان لا زمن واحد أو على رأى العقاد .. كان يقول :

- أن الزمن هو اللعبة التى عملها للابد ..

* * *

* محاذير التفسير العلمى :

قلت له : ما محاذير التفسير العلمى للقرآن ؟

- بمعنى ؟

- بمعنى أن هناك من يعترض على التفسير العلمى للقرآن على اساس أن النظريات العلمية تتغير ولكن الحقائق القرآنية لا تتغير وبالتالى ينبغى ألا نربط القرآن بالتفسير العلمى ..

قال الدكتور مصطفى محمود :

- ليس كل علم متغيرا .. هناك علوم متغيرة وهناك علوم ثابتة .. فالأرض ثبت أنها كروية وصورت من القمر .. وانتهى الأمر .. وعرفنا سر الليل والنهار والرياح والفصول .. أو أن الماء يغلى فى درجة (١٠٠) فى الضغط العادى .. كل هذه حقائق علمية ثبتت وأصبحت حقائق وهكذا ..

هناك مثلا قانون الجاذبية .. الجاذبية حقيقة ولكن .. قد يأتى إنشتين بنظرية ونيوتن بنظرية .. ولكن الجاذبية حقيقة .. فهناك حقائق .... وهناك ثوابت .. وهناك تخمينات .. والمحاذير هو أنك ينبغى ألا تربط الدين بالتخمينات ..

الشىء الثانى لا ينبغى (لَىّ) الآيات .. أى أن تمسك بالآيات وتحاول التفسير على حسب مقتضى الأمر .. وإنما عليك أن تأخذ الآية بمدلولها ومعناها ..

كما ينبغى أن تعرف أنه ليس كل القرآن هو الذى يفسر تفسيرا علميا ولكن الذى يفسر علميا جانب واحد المتعلق بالآيات الكونية : كل ما يخص الرياح والنجوم .. والفلك والجنين .. وهى آيات قليلة فى مجموعها ولكن واضح أنه لابد أن يشترك العلم فى تفسيرها لأنها أصلا تتحدث عن مسائل علمية .. ولكن أن ينفرد بها الفقيه فهذا خطأ ..

ويقول الدكتور مصطفى محمود :

ـ الذى يقرأ القرآن لابد أن يتخذ موقف الوسط .. فلا يسرف .. ولا يجور على آية .. ولكن التفسير العلمى له مكان فى القرآن وانكاره خطأ جدا من السلفيين أو الذين يريدون أن يجعلوه كله فقها ..

ولكن هناك آيات كونية لابد أن يستدعى فيها العلم ويؤخذ رأيه ..

ولحسن الحظ أن رأيه دائما يكون على صواب .. وهناك على الموافقات ..

ونرى أن الثوابت العلمية متفقة مع ما جاء فى القرآن الكريم ..

* * *

* الدين ما هو ؟ :

والدكتور مصطفى محمود يرى أن الدين ليس حرفة ولا يصلح أن يكون حرفة .. ولا توجد فى الاسلام وظيفة أسمها رجل دين ..

ومجوعة الشعائر والمناسك التى يؤديها المسلم يمكن ان تؤدى فى روتينية مكررة فاترة خالية من الشعور فلا تكون من الدين فى شىء ..

ويقول الدكتور مصطفى : ليس عندنا زى اسمه زى اسلامى .. والجلباب والسروال والشمروخ واللحية اعراف وعادات يشترك فيها المسلم

والبوذى والمجوسى والدرزى .. ومطربو الديسكو والهيبى لحاهم اطول .. وان يكون اسمك محمدا أوّ عليا أو عثمان لا يكفى لتكون مسلما .. وديانتك على البطاقة هى الاخرى مجرد كلمة .

والسبحة والتمتمة والحمحمة وسمت الدراويش وتهليلة المشايخ احيانا يباشرها الممثلون بإجادة أكثر من اصحابها .

والرايات واللافتات والمجامر والمباخر والجماعات الدينية أحيانا يختفى وراءها التآمر والمكر السياسى والفتن والثورات التى لا تمت إلى الدين بسبب ..

ـ ما الدين إذن ؟

ـ الدين حالة قلبية .. شعور .. احساس باطنى بالغيب وادارك مبهم شديد الوضوح بان هناك قوة خفية حكيمة مهيمنة عليا تدبر كل شىء ..

احساس تام قاهر بأن هناك ذاتا عليا .. وان المملكة لها ملك .. وانه لا مهرب لظالم ولا إفلات لمجرم .. وانك حر مسئول لم تولد عبثا ولا تحيا سدى .. وان موتك ليس نهايتك .. وانما سيعبر بك من حيث جئت من غيب . والوجود مستمر ..

وهذا الاحساس يورث الرهبة والتقوى والورع ، ويدفع إلى مراجعة النفس ، ويحفز صاحبه لأن يبدع من حياته شيئا ذا قيمة ، ويصوغ من نفسه وجودا أرقى وأرقى كل لحظة ، متحسبا لليوم الذى يلاقى فيه ذلك الملك العظيم مالك الملك ..

هذه الازمة الوجودية المتجددة ، والمعاناة الخلاقة المبدعة ، والشعور المتصل بالحضور أبدا منذ قبل الميلاد إلى ما بعد الموت .. والاحساس بالمسئولية ، والشعور بالحكمة والجمال والنظام والجدية فى كل شىء .. هو حقيقة الدين ..

انما تأتى العبادات والطاعات بعد ذلك شواهد على هذه الحالة القلبية .. لكن الحالة القلبية هى الاصل وهى عين الدين وكنهه وجوهرة ..

وينزل القرآن للتعريف بهذا الملك العظيم .. ملك الملوك وباسمائه الحسنى وصفاته وافعاله وآياته ووحدانيته ، ويأتى محمد عليه الصلاة والسلام ليعطى المثال والقدوة وذلك لتوثيق الامر وتمام الكلمة ..

* * *

■ روح العبادة :

ولكن يظل الاحساس بالغيب هو روح العبادة وجوهر الاحكام والشرائع ، وبدونه لا تعنى الصلاة ولا تعنى الزكاة شيئا ..

ولقد أعطى محمد عليه الصلاة والسلام القدوة والمثال للمسلم الكامل .. كما اعطى المثال للحكم الاسلامى والمجتمع الاسلامى .. ولكن محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه كانوا مسلمين فى مجتمع قريش الكافر .. فبيئة الكفر .. ومناخ الكفر لم يمنع ايا منهم من ان يكون مسلما تام الاسلام ..

وعلى المؤمن ان يدعو إلى الايمان ، ولكن لا يضره ألا يستمع احد .. ولا يضره ان يكفر من حوله .. فهو يستطيع ان يكون مؤمنا فى أى نظام وفى أى بيئة .. لأن الايمان حالة قلبية ، والدين شعور وليس مظاهرة ، والمبصر يستطيع ان يباشر الابصار ولو كان كل الموجودين عميا .. فالابصار ملكة لا تتأثر بعمى الموجودين .. كما ان الاحساس بالغيب ملكة لا تتأثر بغفلة الغافلين ولو كثروا . بل سوف تكون كثرتهم زيادة فى ميزانها يوم الحساب ..

ان العمدة فى مسألة الدين والتدين هى الحالة القلبية .. فالدين هو أكبر بكثير من أن يكون حرفة أو وظيفة أو بطاقة أو مؤسسة أو زيا رسميا ..

■ عصـر القـرود :

نحن نسير فى عصر يسابق الانسان ظله نحو التقدم المادى والتكنولوجي الذى لم يسبق له نظير فى كل العصور ، وفى ظل هذا التقدم الهائل .. فقد الانسان الكثير من قيمه حتى أننا نرى الكثيرين من المفكرين العالميين من نعى هذا العصر ومنهم من ترك المدنية المعاصرة ليهرب ويعيش فى افريقيا .. حيث الفطرة .. والبكارة .. مثل البرت شفايترز الحائز على جائزة نوبل .. هذا العصر يطلق عليه الدكتور مصطفى محمود عصر القرود ..

ـ كيف ؟

تلوث كل شيء .. واخطر انواع التلوث فى رأى الدكتور مصطفى محمود هو التلوث الخلقى .. انه يقول :

ـ اخطر انواع التلوث فى هذا العصر هو التلوث الخلقى بما استحدث الانسان من وسائل اعلامية تدخل على الانسان غرفة نومه وتزاحم العائلة على مائدة العشاء مثل التليفزيون والراديو الترانزستور بحجم الكف الذى يأخذه النائم فى حضنه .. ومن خلال هذه الوسائل الحميمة أصبح فى امكاننا ان نقدم للناس ما نريد ، وأصبح فى الامكان ان نروج للباطل وننشر الاكاذيب .. واصبح فى الأمكان ان ندعو للشهوات عيانا بيانا بما نغنيه على اسماع الناس لبل نهار من كلمات عارية ، وما نعرضه على اعينهم من مغازلات ، فيتربى الصغار على ان هذا هو الامر الواقع .. فينتهى الحياء وبانتهاء الحياء تبدأ دولة القرود ..

ويقول ايضا : ونحن الآن سيداتى سادتى قادمون على عصر القرود . برغم ان الانسان مشى على القمر ، وتحكم فى طاقة البخار والبترول والكهرباء والذرة ، وغزا الفضاء .. لكنه بقدر ما حكم هذه الأشياء بقدر ما فقد التحكم فى نفسه .. وبقدر ما فقد السيطرة على شهواته ..

ولهذا فنحن أمام انسان أقل رحمة وأقل مودة وأقل عطفا وأقل شهامة وأقل مروءة .. وأقل صفاء من إنسان العصر الزراعى المتخلف ..

لقد تقدمنا خطوات إلى الامام وسرنا مثلها الى الخلف ..

سألوا نجمة عالمية من نجوم السينما الفاتنات معروفة بإضرابها عن الزواج عن رأيها فى الحب قالت : أوه .. لا أؤمن بالعلاقة المادية المباشرة مع الرجل . وبعد ذلك تأتى بالمسائل الأخرى .. ان قدر لها أن تأتى .. أو بالعبارة الموضوعية :

نباشر بعضنا البعض أولا ثم تأتى بعد ذلك الصداقة أو الحب إن قدر له أن يأتى ..

ترى من يكون السيد الحاكم فى سلوك هذه السيدة سوى أعضائها التناسلية ؟ ! وأبشروا سيداتى سادتى بمجىء عصر القرود ..

* * *

■ الحب الأسمى :

والحب الأسمى عند الدكتور مصطفى محمود ليس هذا الحب الزائل بين رجل وامرأة .. ولكن الحب الحقيقى هو الذى يرتفع إلى مستوى أسمى وارفع وأرقى ، أنه حب الذات الالهية وبشاعرية .. وعمق إلى جوهر الأشياء .. إقرأ هذا الابتهال الذى يتجه إلى الله .. جل علاه – وهو يوضح فلسفة أديبنا المفكر الدكتور مصطفى محمود أنه يقول فى ابتهاله الجميل المغلف بالرؤى الفلسفية – إن صح التعبير :

إلهى يامنبع جميع الأنوار

ترى من نحب حين ننظر إلى بعضنا البعض ؟

وهل نحب إلا نورك أنت وأثر يديك على الصلصال ، وهل يسكرنا إذا سكرنا الا نفحة روحك التى نفختها فينا ؟ وهل نطالع فى كل جميل الا وجهك ؟ .

وهل كل يد شافية وكل قبلة رحيمة إلا ترجمان رحمتك .

فكيف ياإلهى تصل بنا الأودية وتتفرق السكك وتخرج من أسمك إلى أسمائنا فنسجن أنفسنا فى هذا الصدر أو نتوه فى ذلك العنق أو نهاجر فى تلكما العينين وتتسكع أيدينا على نحاس الاضرحة فتلثم الشفاه ويخيل إلينا أننا نذوق خمرك وما نذوق إلا زجاج الكئوس التى أودعت فيها ذلك الرحيق الخفى الذى هو سر اسرارك ، ويخيل إلينا أننا بلغنا المنتهى ، وما بلغنا الا لمس الغلاف وتحسس المحارة .. أما اللؤلؤ داخل المحارة والنور المغيب فى شغاف القلوب والسر المودع فى العيون ، فليس لنا منه الا حظ القرب والمطالعة والاستشراف من بعد حيث لا وصال ولا اتصال ولا انفصال ولا نوال .

وإنما فى الذروة ـ الاحساس يأتى ذلك الاغماء .. وتلك الغيبوبة الصاخبة .. وتلك النشوة الغامرة حينما نوشك أن نكون قاب قوسين أو ادنى من لقاء السر بالسر .

ولا سر الا سرك وأن تعددت الأسماء وتنوعت المفاتن واختلفت الوجوه ، انما هو أنت وحدك المحبوب أينما توجه قلب محب ، وأنت وحدك المعبود أينما توجهت نظرات عابد .

وأنت وحدك الرازق وأن تعددت الأيدى التى تعطى إنما تستمد جميع المصابيح من نورك ..

كل مصباح يأخذ منك على حسب استعداده ، ويعطى من نورك على حسب شفافيته ..

ولكن العطاء فى الأصل منك ، والجمال منك والنور منك .
سبحانك لا شريك لك ..
سبحانك والحمد لك ..
سبحانك والحب لك ..

سبحانك مالثمت إلا أياديك ، وما قبلت إلا وجهك .. وما سبحت الا لنور عينيك ، وأن نطقت فى كل مرة اسما غير اسمك .. فإنما هو ضلال اللسان فى القراءة وضلال العين فى الرموز ، وقراءة الشيطان للشفرة الخطأ .. وإنما هو التخبط فى الحجب وتلثيم الاضرحة وتقبيل النحاس .. وغفلة الطبع عن الحقيقة ..

يارب .. سألتك باسمك الرحمن الرحيم أن تنقذنى من عينى .. فلا ترنى الأشياء إلا بعينك أنت .. وتنقذنى من يدى .. فلا تأخذنى بيدى بل بيدك أنت تجمعنى بها على من أحب عند موقع رضاك .. فهناك الحب الحق .. وهناك أستطيع أن أقول .. لقد اخترت .. لأنك انت الذى اخترت .. وأنت الوحيد الذى توثق جميع الاختيارات وتبارك كل الحريات .. أنت الحرية .. ومنك الحرية .. وبك الحرية .. وأنت الحب ومنك الحب وبك الحب ، أنت الحق والحقيقة ..

وماعدا ذلك أضرحة وخشب ونحاس وصلصال وحجارة وأهداب وعيون ومحاجر وأوثان تسجد لأوثان .. لاتدعنى ياإلهى فى الظلمة الثم الحجارة وأعانق الصلصال وأعبد الوثن ..

بشفة الشيطان لثمت هذه الأشياء وظننت أنها شفتى .. وبذراعى الشيطان عانقت وظننت انهما ذراعاى ..
أستحلفك بضعفى وقوتك ..
وأقسمت عليك بعجزى واقتدارك ..

الا جعلت فى مخرجا من ظلمتى إلى نورى ، ومن نورى إلى نورك .. سبحانك لاإله إلا أنت .. لاإله إلا الله ..

وبهذه الترنيمة الصوفية العذبة التى فتحت لنا الأبواب على عالمه الصوفى .. ننهى هذه الحلقة لندخل معه فى حوار قادم فى عالم الأدب .. ذلك العالم الذى يصور النفس الانسانية فى صراعها مع الحياة والاحياء ، ومع النفس الانسانية نفسها ..

* * *

الفصل الخامس

بحار الفكر الإسلامى

*** بحار الفكر الاسلامى .. واسعة وعميقة الملاح الماهر من يغوص فيها دون أن يغرق أو يتوه .. والعلاقة بين العلم والدين علاقة تكامل دون انطباق .. فالعلم مجاله التجريب والظن والتخمين .. والقرآن هو عالم الحقيقة واليقين لأنه من الخالق ..**

وفى حوار امتد لساعات طويلة مع الكاتب والأديب والمفكر الدكتور مصطفى محمود هو حوار شائق وساخن يطرح فيه مفهوم الايمان .. وماهو الدين ؟ .. ولماذا أطلق على العصر الذى نعيشه « عصر القرود » ؟ .. وما هو الحب الأسمى للنفس ؟.

***

ويمتد الحوار مع الدكتور مصطفى محمود .. ويأخذ مساره نحو الفكر الاسلامى .. لأنه فكر خصب وثرى ويمتد أثره إلى أعمق أعماق النفس البشرية .. وأهمية الدين تبرز لا من ناحية الاعتقاد فحسب بل هو يشكل شخصية الانسان .. وسلوكه ويتغلغل إلى كل ذرة فى كيان الانسان وحركات المجتمع .. وهو بالتالى ليس بعيدا عن السياسة ..

أو على حد تعبير الفيلسوف المسلم محمد إقبال عندما تساءل : هل نستطيع أن نحتفظ بالاسلام من حيث هو نظام مثالى للأخلاق وأن نرفضه كنظام سياسى ونستعيض عنه بسياسة قومية لاتفسح فيه مجالا للعامل الدينى ؟

واجاب :

ـ ليس الدين مجرد تجربة خاصة تجرى داخل المرء دون أن يكون لها تأثير فى محيطه الاجتماعى .. ان الاسلام تجربة شخصية مفضية إلى قيام نظام اجتماعى تشتق منه الاصول اللازمة لنظام سياسى .. ان المثل الدينية فى الاسلام متصلة اتصالا وثيقا بالنظام الاجتماعى الذى انبثقت منه.واذا كان قيام نظام سياسى على قواعد قومية صرفة من شأنه أن يزحزح مبادىء التضامن الاسلامى فهو أمر لايمكن أن يتصوره المسلم .

* * *

■ الإيمــان عــن دراســة :

وبدأت الحوار مع الدكتور مصطفى محمود حول الفكر الاسلامى ..

قلت له : كان العقاد يقول أؤمن بالله وراثة وشعورا وبعد تفكير طويل.

والوراثة والشعور معروفان .. أما بعد تفكير طويل فخلاصته فى ـ رأى العقاد ـ أن القول بالتطور فى عالم لا أول له خرافة تعرض عنها العقول لأن ابتداء التطور يحتاج إلى شىء جديد فى العالم .. وحدوث التطور بغير ابتداء تناقض لايسوغ فى اللسان فضلا عن الفكر أو الخيال .. والقول بالارتقاء الدائم عن طريق المصادفة زعم يهون معه التصديق بالخرافات وخوارق العادات فى تركيب الأجسام أو الأحياء .. والقول بأن المادة تخلق العقل كالقول بأن الحجر يخلق البيت.وأن البيت يخلق الساكن فيه .. وأيسر من ذلك عقلا بل ألزم من ذلك أن يقال أن العقل والمادة موجودان وأن أحدهما يسوق الآخر ويسبقه وهو العقل .. لأن المادة لايوجد ماهو أفضل منها .. وفاقد الشىء لايعطيه ..

وخرج العقاد من هذا التسلسل المنطقى بقوله : فأنا أؤمن بالله وراثة .. وأؤمن بالله شعورا .. وأؤمن بالله بعد تفكير طويل ..

ترى .. هل مررت بتلك المراحل ؟

أجاب الدكتور مصطفى محمود :

ـ الحقيقة أننى لم أشك يوما فى وجود الله ووحدانيته .. فهذه أشياء موجودة فى قلبى بالفطرة .. ولكن كانت هناك مسائل كثيرة كنت أفكر فيها كثيرا .. مثل مسألة الجبر والاختيار .. والجنة والنار .. والخلود فى الجنة والنار .. والقرآن هل جاء معناه للنبى عليه الصلاة والسلام أم جاء بحرفه ؟ كل هذه المسائل كنت كثير التفكير فيها .. ومع الوقت انتهت هذه الشكوك . وأصبحت ثابت اليقين .. وهذه هى التى دخل فيها عنصر القراءة .. وعنصر التفكير .. وأشعر أننى كلما درست واطلعت ردت يقينا بكل حرف جاء فى القرآن الكريم ولكن الايمان بالله سبحانه وتعالى حقيقة وأنا أحس بها .

* * *

■ عجز العلم :

قلت له : لك كتاب ممتع (حوار مع صديقى الملحد) .. ترد فيه بموضوعية على دعاوى الالحاد والزندقة والتحذلق باسم العلم .. هل يمكن أن تعطى القارىء موجزا لفكرة هذا الكتاب ؟ أو الخطوط الرئيسية له ؟

قال : الخطوط الرئيسية فيه أنه يعكس محاورات بلا حدود مع الشباب الذين مروا بنفس التجربة .. انه يرد على البعض الذى يأتى وعنده عنجهية كفر يكون سلاحه بعض النظريات أو الكتب والذى يعتقد أنها تفسر كل شىء .. وأننا لسنا فى حاجة إلى أنبياء ولا كتب سماوية .. ولكن العلم عاجز

تماما عن تفسير دموعك وحزنك وشقائك ولايستطيع العلم تفسير الموت .. انه يقف أمام الموت عاجزا .

الذى يستطيع العلم فعله أنه يدرس المقادير وعلاقاتها ببعضها البعض والقوانين التى تربطها وكيف تتحكم فى البيئة ..

انما نفسك .. ان النفس الانسانية أمام المصير والمرض والشيخوخة .. والألم .. كل ذلك يقف أمامها العلم عاجزا ..

★ الأدب الصوفى :

قلت : هناك الأدب الصوفى .. برموزه .. واشاراته .. هل يمكن لأى ناقد أن يفسر مثل هذا اللون من الأدب ؟

قال :

- لايفهمه إلا صوفى من أهل المواجيد .. لانه ليس أدبا يعتمد على زخرف القول .. فلو قرأت ابن عربى ، أو ابن عبد الجبار النفرى .. ستجد نفسك أمام أشياء جديدة تماما فى العبارة .. هناك معان لو لم تكن داخلا فى هذه (السكة) تغيب عنك .

وهناك كاتب لبنانى كتب كثيرا عن النفرى .. نسيت اسمه .. كتب كثيرا عن النفرى ..

- تقصد أدونيس ؟

- بالضبط .. لقد اعتبر النفرى عبقرية أدبية .. وهذا خطأ كبير .. وعزله عن فكرة الله سبحانه وتعالى .. انه مفتون بالنفرى .. ولكن للأسف انه يأخذ وجهة نظره من وجهة نظر أديب مجرد .. ولكنه عرف .. انه يتحدث عن الله .. وليس حديثا عن جماليات رواية سيأخذ عليها جائزة نوبل .. لا .. انه يتحدث عن الله .. وبذلك فهو غير موفق على الاطلاق فى نقده ..

★ السر الأعظم :

و .. لندخل عالم الدكتور مصطفى محمود فى أدبه الصوفى وهو يتجول بنا فى هذا العالم الفسيح الرحب .. عالم الروح .. وأدب الروح ـ ان صح التعبير .. إنه يقول :

ليس هناك انسان لم يتوقف يوما أثناء عمره الطويل ليسأل نفسه .. من أين و إلى أين وما الحكاية ، وماذا بعد الموت .. أينتهى كل شىء إلى تراب .. أيكون عبثا وهزلا .. أم أنها قصة سوف تتعدد فصولا .. أكان لنا وجود قبل الميلاد .. وماذا كنت قبل ان أولد .. ومن أنا على التحقيق .. وما حكمة وجودى .. وهل أنا وحدى فى هذه الغربة الوجودية .. أو أن هناك من يرانى ويرعانى ويعتنى بأمرى ؟ ..

وليس انسانا من لم يحاول ان يحل هذه الالغاز ويجيب عن تلك التساؤلات ويقرأ بكل قلبه ويستمع بكل أشواقه إلى من يقول عندى جواب .. فالمسألة ليست ترفا فلسفيا كما يدعى الماديون وانما هى كل شىء .. وسوف يتوقف عليها كل شىء .. واذا كان أصحابنا الماديون قد شغلوا أنفسهم باللقمة والنكاح ولذة الساعة عن هذا السؤال العظيم فما أبعدهم عن الانسانية .. ويالـه من أمر محزن أن نسمع الواحد منهم يلوى وجهه ليقول مشيحا بيده : هذه مسائل غير مطروحة .. مرددا بذلك شعارا محفوظا قد وزعوه عليه فى الحزب حيث جعلوا التفكير أمرا محظورا ليظل الكل عبيد اللقمة ..

يقودونهم بالجوع ويدفعونهم بالحقد ويحركونهم بالاهواء قطعانا من البهم لا ترى الا على مدى شبر أمامها .. وما أبعد هذه الصورة المشوهة عن الصورة الأخرى للفطرة النقية التى عبر عنها ذلك البدوى البسيط ..

الذى وقف يتلفت حوله فى الصحراء .. ينقل بصره بين السماوات والأرض ويحدث نفسه وهو يتتبع آثار بعيره على الرمل ..

ان البعرة تدل على البعير .. والأثر يدل على المسير .. أفلا تدل سماوات ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج على مبدع لطيف خبير ..

هذه نظرة نقية شفافة شفافية الهواء الطلق ، أدركت الحكمة والنظام من نظرة واحدة ، فأنكرت العبث وهدت صاحبها إلى الحقيقة ، وهناك فطرة سودتها المداخن وأصمها ضجيج المكن .. والهبها عواء الغرائز فاستغرقتها المطالب العاجلة وانساها وراءه كل شىء ..

- ان هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا .. و .. نمضى مع الدكتور مصطفى محمود فى حديثه الشائق عن عالم الأسرار .. يسوق لنا أبياتا لابن عربى مثلا .. والذى يقول فيها :

كل ما أذكره من طلل
أو ربوع أو مغـان كل ما
واذا السحب اذا قلت بكت
وكذا الزهر اذا ما ابتسما
أو بدور فى خدور أفلت
أو شموس أو بنات أنجما
أو بروق أو رعود أو صبا
أو رياح أو جنوب أوسما
أو نساء كاعبات نهد
طالعات كشموس أو دمى
كل ما أذكره مما جرى

ذكره أو مثله ان تفهما
منه اسرار وأنوار جلت
أو علت جاء بها رب السما
صفة قدسية علوية
أعلنت ان لصدقى قدما
فأصرف الخاطر عن ظاهرها
واطلب الباطن حتى تعلما

مثل هذا الشعر كيف نفهمه .. وهو ملء بالاشارات والرموز .. هل من خلال الوعاء اللغوى ؟

يقول الدكتور مصطفى محمود مفسرا ذلك :

ـ الصوفى العارف لا يرى حيث توجه إلا الله .. « فأينما تولوا فثم وجه الله » ..

فكل ما فى الدنيا تجلياته وتنزلات أسمائه الحسنى وصفاته .. كل يظاهر الكون رموز من حيث تشير إلى الحقائق الالهية والتجليات الاسمائية ، فما ثم شىء عادى وإنما كل شىء فى الصوفى يدعو الى الدهشة .. والوجود كله عجب لأن كل ما يبدو له يحدث عنده ذكراه ويكشف حكمة ويجلو أمرا .. وهو أينما تلفت يقول مبهورا .. الله .. الله .. وليس فى الأمر مجاز أو تشبيه ، وإنما كشف روحى نورانى ..

ويضرب **الدكتور مصطفى محمود امثلة** .. العشق للذات الالهية والحب الأسمى .. وهذه الخمر الذى يشعر بها العارفون .. فيبلغ ذلك قمة الصفاء والشفافية .. **فابن الفارض يقول** :

يقـولون لى صفها فأنـت بوصفها
خبير .. أجل عندى بأوصافها علم

صفـاء ولا مـاء ولطــف ولا هـوا

ونـــور ولا نـار وروح ولاجســم

تقـــدم كل الكائنـــات حديثها

قديمـا ولا شـكل هنـاك ولا رســم

وقامـــت بها الأشـياء ثم لحكمـة

بها احتجبت عن كل من لا له مهـــم

يقول الدكتور مصطفى : والله ظاهر من حيث المظاهر ، باطن من حيث الهوية ، ولكنه لايتغير ولاتتكثر مع تلك المظاهر ، فإنه يظل الحق تعالى غيبا فيما ظهر من الصور فى الوجود ، فنسبتنا منه نسبة الصفاء والأسماء ، أما الذات فخفاء مطلق ولايظهر فى مرآة الظواهر سوى الحكم العين لا العين (أى تظهر صفات وأسماء ولكن الذات تظل أبدا لاتظهر ولاتتغير ولاتتكثر) .. وإنما تظهر الصفات فى أعين الممكنات على قدر استعدادها ، فما نرى من تكثر وتنوع هى أحكام ونسب للصفات والأسماء الالهية ..

وقد أتاحت هذه النظرة لابن عربى نفى التجزئة عن الحق تعالى لأن الله لايعطى من ذاته فى هذه التجليات شيئا ، كما أن الشمس لاتعطى من ذاتها شيئا للقمر حين تنجلى بنورها فيه ..

ولعل من أروع وأجمل ما فى الأدب الصوفى هو التغنى بحب الله .. أن يرتفع الانسان عن هذا المستوى المألوف إلى حب أسمى وأخلد وأعمق ، حب الذات الالهية .. حيث نستمع إلى هذا الشعر الشفاف الممتع الذى تمثل فيما قرأناه من شعر رابعة العدوية ، وابن عربى ، وابن الفارض وغيرهم من شعراء الصوفية فى كل العصور ..

ويعبر الدكتور مصطفى محمود عن هذا المستوى الرفيع من الحب ويقارنه بالحب الآخر فيقول :

ـ الحب هو الصنم المعبود فى هذا الزمان .. هو اللات والعزى وهبل فى جاهلية هذا العصر . نذبح له القرابين من دم الشباب ووقته ووعيه ونحرق بخورا فى هذا المحراب الضبابى .. وهو تجارة أصحاب الجيوب ومضيعة أصحاب القلوب .. وهو من أخطر المفاهيم التى زيفها العصر فعرضته وسائل الاعلام مشوها .. مريضا فى الأغنية والرواية والسينما والمسرح والتليفزيون .. لايكاد يخرج عن مراودات بين أنثى وذكر وتأوهات تحت ملاءة ، ومحاولات رجل لاصطياد زوجة رجل آخر .. لايشغل بال المؤلف طول الوقت إلا كيف يصل إلى الفراش ، ولايشغل بال المخرج إلا كيف يعرى جسد بطلاته ..

وفى أوربا تجاوزوا ذلك إلى عرض الأعضاء التناسلية عارية فى أفلامهم ثم عادوا فتجاوزوا ذلك إلى عرض الجنس عيانا .. ثم عادوا فتجاوزوا هذ العلاقة الشاذة بين الرجل والرجل وبين المرأة والمرأة .. ثم عادوا فتجاوزوا هذا إلى بشاعات حسية مثل علاقة امرأة بكلب أو علاقة رجل بخنزير .. ووراء هذا أموال تنفق لافساد العالم وأصابع سياسية مريبة تعمل .. وكل هذا يجرى باسم الحب والفن والحرية والتجديد ..

ونحن من ورائهم نقلد فى غباء أيضا .. وباسم الحب والفن والحرية والتجديد .. وحقيقة الأمر أن مايجرى هو ظاهرة تخلف عندنا .. وتخلف عندهم .. وارتداد للانسانية عامة إلى حيوانية وجاهلية مادية حسية أحط من جاهلية قريش لأنها هذه المرة جاهلية مسلحة بوسائل اعلام وأدوات انتشار الكترونية علمية تنشر الأوبئة الخلقية بأسرع من سرعة الضوء ..

و .. ما أحوجنا وأحوج العالم إلى الاستماع إلى ذلك الصوت الهامس العميق الحميم .. صوت الصوفيين الأطهار حينما يصفون لنا حقيقة الحب ويحملوننا على أجنحتهم لتفهم أعماق الحب وماهيته ومنبعه ..

ويرى الدكتور مصطفى محمود أن أعلى ألوان الحب .. هو الحب الالهى الذى يتوجه الشوق فيه إلى أصل كل شىء وصورة جميع الصور : الله تبارك وتعالى .

* * *

■ محاذير التصوف :

ومصطفى محمود وهو يعرض لنا بحار الصوفية وأدب الصوفية يحذر من التهتك الصوفى .. فهو **يقول** :

ـ الحقيقة أن التراث الصوفى بحر عميق فيه اللآلىء والأصداف ، ولكن فيه أيضا التماسيح والحيتان .. فيه جزائر المرجان وفيه المتاهات المهلكة التى لايعود منها الملاح ..

والقراءة فى التصوف أشبه بالملاحة فى بحار الظلمات بقارب شراعى .. وماأكثر ماتنكسر الدفة ويتحطم المجداف ويفقد السالك إتجاهه ، والنور الوحيد الهادى السالك فى هذا البحر هو نور الكتاب والسنة .. وبدون الشريعة لايمكن أن يصل السالك إلى بر الأمان ..

الشريعة دفة الملاح فى هذا البحر .. وهى دليله على ما يأخذ وما يدع .. فما وافق الشريعة من لغة القوم وعلومهم يأخذ .. وما خالف الشريعة يتركه غير نادم ..

و .. ما أعمق وأمتع عالم الدكتور مصطفى محمود .. انه عالم ثرى وخصب .. فهو أشبه بالملاح الذى يعبر ويبحر عبر المحيطات يريد أن يعرف ويعرف ويعرف .. ولكنه فى رحلاته الفكرية والأدبية كان دائما متسلحا بسلاح العلم والمعرفة .. انه ينشد دائما الوصول إلى واحة

المعرفة .. مهما كانت اشواك الطريق .. نرى فيه جسارة الملاح .. وإرادة المفكر .. وطموحات العالم .. ورغبة الباحث عن الحقيقة .. انه الدكتور مصطفى محمود .

***

*** الحديث عن الدكتور مصطفى محمود الأديب والفنان يجعلنا نقوم برحلة داخل ما قدمه من ابداع فنى سواء ما قدمه فى مجال القصة او المسرحية .. حيث نرى انفسنا امام فنان يعرف قيمة الكلمة .. وما يمكن أن تؤدى هذه الكلمة من رد فعل .. فالأدب عنده ليس تلاعبا بالألفاظ ، أو الجرى وراء الموضوعات الأدبية .. ولكن الادب عنده رسالة ، ويمكننا أن نمسك الخيط الذى يربط إنتاجه الأدبى ..**

* الفرق بين المسرح والعمل الروائى هو موضوع الصراع .. وهو واضح فى مسرحية « الاسكندر الأكبر » ويتمثل الصراع بين البطل الطاغية الدكتاتور وبين جيشه .. وفى (الزلزال) صراع الأفكار واضح بين الفكر الرأسمالى والفكر الشيوعى .. والزلزال الاجتماعى نتيجة صراع الأجيال وصراع الأفكار .

وفى (الانسان والظل) يجرى الصراع فى داخل نفس القاضى ، فهو صراع بين النفس والنفس .. بين الممكن والمثالى ..

وسواء اتخذ الدكتور مصطفى محمود المسرح مادة تاريخية أو مادة واقعية أو مادة ذهنية .. فالصفة المشتركة هى صفة الصراع .

فى مسرحية (الطوفان) يجرى الصراع بين مذاهب ونظم سياسية ، ويجرى بين الدول الكبرى بعضها مع البعض الآخر ، ثم يجرى بينها كدول كبرى وبين الدول المتخلفة ، ثم يتصاعد سباق زمنى إلى ما يشبه النهاية أو القيامة ..

فى رواية (الشيطان يسكن بيتنا) يجرى الصراع بين الخير والشر ممثلا فى (سونيا والرجل الصوفى) .. ولكن نرى فى نفس الوقت أن هذا الصراع يجرى على المجتمع كله ويعرض الخريطة السياسية فى شكل محاولات مستمرة للافساد تقوم بها الدول الكبرى للسيطرة على الدول المتخلفة .. كما نرى هذا الصراع يجرى على مساحة الشاشة الصغيرة أو الشاشة الكبيرة للسينما .. أو بطول الفن كله .. هبوطا وصعودا بين الفن الرخيص والفن الراقى ..

* * *

■ وظيفة الأدب :

قلت للدكتور مصطفى محمود :

ـ هل عندما تكتب فى الأدب تجعله موظفا فى خدمة القيم الأخلاقية ؟

قال :

ـ عندما اكتب يصبح الفن والجمال هدفا ، ولكن اذا كانت بعض الكتب (كنقطة الغليان) جاءت تعبر عن أهمية القيم .. فواضح أنه كتاب اخلاقى .. وربما لأننى كنت أمر بتجارب هائلة فى هذه المرحلة .. عشت اخطاء .. وعانيت معاناة كثيرة .. احسست أنها سوف تظهر رغما عنى فى كل ما اكتب .. فهذا الكتاب يعكس فعلا المعاناة التى مررت بها ، بعكس

المراحل من القصة التى كنت أكتبها بشكلها المحايد جدا كمجموعة (أكل عيش) أو (عنبر ٧) .. فهى تحتل مراحل فى حياتى ومعاناتى الشخصية .. ومرتبطة تماما بالحياة كما أعيشها ..

* * *

■ أزمة النقد :

- ما رأيك فى أزمة النقاد المعاصرة ؟

- لاأستطيع الحكم لأن هذا يحتاج إحاطة بكل ما ينتج الشباب .. فلا أستطيع أن أقول أن هناك أزمة إنتاج .. فلا يقول هذا إلا الذى يقرأ كل ما يخرج من إنتاج أدبى - حتى البروفات ..

ولكن هناك مواهب فى إنتاج الشبان .. ولايمكن أن اظلمه أبدا .. ولايمكن أن أتصور أن مصر تعقم .. وليس بها أشجار تنبت الورود أو الثمر .. فأنا لاأشك أن هناك مواهب فى الشباب ، وليس هناك عقم .. جائز أن يكون الشباب فى مراحل تكوين .. جائز يكون أقل .. لكن المواهب موجودة وواعدة .. ومع العكوف التام تنضج هذه المواهب .. والصوفية يقولون لابد من دفن البذرة حتى تعطى ..

فاذا كان هناك تسرع للوصول فلن يخرج من الشباب شىء .. لابد أن يدفن فترة حتى ينضج ويقدم شيئا ذا بال .. والمشكلة أن بعض الشباب يتعجل الشهرة .. وهذا شىء غير ممكن .. ولكن هناك نوعيات عندها صبر ودأب ..

ومسألة النقد كانت أزمة على ايامنا .. عندما كان عبد العظيم أنيس

ومحمود أمين العالم يصنفان الأدباء ويهدوهم .. وأحس الأدباء أنهم سوف يدفنون لو لم يسيروا فى السكة اياها .. (بتاعت) اليسار ، فقد حدثت موجة تشيد اشادة غير معقولة بأديب لمجرد أنه يسارى .. ويكتب عنه .. ويترجم أعماله إلى الروسية .. ويدعى إلى موسكو .. فنتج عن ذلك نوع من الخلل فى التقييمات . اشادة هائله بأديب لا لشىء إلا أنه ينتمى إلى اليسار ..

فى أيامنا كان هذا نوع الأزمة .. وقد أخذت هذه الأزمة وقتها وانحسرت فعلا .. وانتهت موجة اليسار ، وأعتقد أن اليسار سقط بالفعل داخل روسيا نفسها .. ولكن أن يغنى دراويشنا هنا .. فهم أحرار .. لكن لم يسمعهم أحد وهم لايعبرون عن مصر .. ولاحتى عن الأدب بأنواعه .. لأن الأدب الآن .. وأدب الشباب ليس ماركسيا على أى حال .. أنه أنواع .. جائز نرى النوع العبثى والنوع التجريدى .. أو أى نوع يخطر على البال .. ولكن ليس هناك أدب ماركسى .

النقد يحتاج لتقييمه إلى نقاد متابعين .. وأنا أسألك أنت باعتبارك عاصرت ذلك ..

■ الهجوم على عبد الناصر :

*** قلت له :**

- أنت متهم بالمغالاة فى هجومك على جمال عبد الناصر ؟

قال الدكتور مصطفى محمود :

- الذين يقولون ذلك هم الناصريون .. الذى قلته عن عبد الناصر موضوعى ..

والواقع انه ليس عندنا احصاءات كاملة بحيث أن نحكم حكما نهائيا .. والله من أسمائه أنه المحصى .. واضح أننا نكاد نجزم أن عبد الناصر قدم كمية من النفع ما لم يقدمه زعيم ، ومع ذلك فإن كمية الضرر أكبر كمية من الضرر قدمها زعيم .. ولكن لكى ترجح أى الكفتين .. فهذا يحتاج إلى علوم إحصائية .. تحتاج إلى الاحصاء الالهى نفسه ..

وأنا أشعر أن الضرر الأكبر الذى حدث ، هو ماحدث للشخصية المصرية .. السلوكية المصرية .. بأى ميزان تحسب ذلك .. يمكن هناك أشياء يمكن أن تحسب مثل الاقتصاد وتخريبه .. ومثل الهزائم التى حدثت .. والانفاقات التى ذهبت هدرا .. ولكن هناك شىء لايمكن احصاؤه وهو ماحدث للشخصية المصرية نتيجة غياب الحرية عشرين عاما .. ونتيجة نوع من التعامل مبنى على الانفاق والنفاق ، لأنه مادامت القوة حكمت .. فليست هناك وسيلة للتفاهم مع القوة سوى النفاق والمداهنة ، فخرجت شخصية مهلهلة نتيجة غياب الحرية طوال فترة حكم عبد الناصر .. ونتيجة أسلوب القوة وحكم الفرد فخرجت شلل .. أسلوب التفاهم عندهم هو التسلق والوصولية والنفاق ..

للأسف كانت نوعا من (المحضن) لنمو أخلاق سلبية جدا فى الشخصية المصرية .. وأنا أعتبر أن أخطر ضرر قام به جمال عبد الناصر هو هذا الجانب المتعلق بالشخصية المصرية ، لأن باقى الأضرار من الممكن أن يصلح ..

الخراب .. يبنى ..

الحروب .. يوضع حد لها

الهزائم .. تصبح انتصارات .

الانتاج .. المصانع .. كل ذلك يمكن إصلاحه ولكن الفساد الذى نشأ فى سلوكية الشباب .. هذه أمور تضرب بجذورها الى الآن وتنخر فى كياننا الاجتماعى .. وكلما نقوم بالبناء نجد أنه يهدم من أسفل .. وهذا ضرر مستمر و (كم) الضرر (وكم) النفع من اختصاص الله سبحانه وتعالى .. من أجل هذا .. قطعا سوف يكون مشهدا كبيرا يوم القيامة . فالسلبيات هذه تحتاج إلى قرنين من الزمان حتى تصلح .

* * *

■ نظرة على مشاكل مصر :

ويضحك الدكتور مصطفى محمود طويلا وهو يقول :

ـ من الأفضل أن نعلق الحكم الآن .. ونشغل بمشاكل مصر الحالية .. لأن مشاكلنا تراكمت جدا .. وكثرت جدا .. وبدلا من الحديث أيهما أفضل .. عبد الناصر أم السادات .. بدلا من أن نشغل أنفسنا بمثل هذا السؤال .. نشغل أنفسنا بمشاكلنا الحالية .. فقد انتهت مرحلة عبد الناصر والسادات ، وأنا لاأفهم معنى الناصرية .. يعنى إيه الناصرية ؟ ..

كل المناسبات والأساليب التى قام بها عبد الناصر انتهت ، ولو حاولت أن تقوم بها الآن لاتصلح .. الخريطة تغيرت نهائيا ..

فى الماضى كان المظلوم هو الفلاح الأجير .. الذى كان يكتب عنه يوسف ادريس روايته (الحرام) .. الآن المظلوم هو الموظف .. أصبح النجار والحداد والبراد وكل الحرفيين يكسبون أكثر من (٥٠٠ جنيه شهريا) .. وحلوا مشاكلهم .. المشكلة الوحيدة الآن هو الموظف ..

ثانيا : نتيجة لهذا كان قديما يعول اليسار على البلوتاريا كقوة دفع ..

والآن ليس أمامهم إلا الطلبة الذين يدفعونهم للقيام بمظاهرات ..

لقد تغيرت الخريطة تماما .. الطبقات المطحونة لم تعد مطحونة .. والطبقات التى كانت مطحونة أصبحت الآن مرفهة والعكس صحيح ..

اذن لو عاد عبد الناصر واستعملت أساليبه لفشل تماما ، فقد انتهى الوقت للحديث عن عبد الناصر أو السادات ، فقد أديا ماأستطاعا فى مرحلتيهما .. والله يعرف عنهما اكثر مما نعرف .. ومشاكلنا الآن تحتاج إلى أسلوب تفكير مختلف تماما ..

من أجل هذا أنا أرى أن حسنى مبارك موفق تماما .. لأنه يركز على الاقتصاد والانتاج ..

* * *

■ فلسفة القهر :

وقبل الانتقال إلى نقطة أخرى فى حوارى مع الدكتور مصطفى محمود ، ونحن نطل على الماضى القريب للاستفادة وأخذ العبر والدروس ونحن نتطلع إلى الغد .. وإلى المستقبل يتداعى إلى فلسفته التى عبر عنها بقوله :

ـ لو اجتمعت سلطات العالم على قلب رجل واحد لما استطاعت أن تغيره كرها ..

ولو تحالف الحديد والنار والسجن والتهديد على سجين فى زنزانة انفرادية .. لما استطاعت تلك القوى مجتمعة أن تجعل هذا السجين يحب ما لايحب ويكره ما لايكره .. ربما استطاع السجان أن يقهر سجينه على التوقيع على ورقة بالاكراه .. ربما استطاع أن يرغمه على تقطيع الحجارة وأكل الحصى ، ربما استطاع أن يقطع لسانه وينزع جلده ، ولكنه لا ولن يستطيع أن ينزع ذرة كراهية من قلبه أو يبدل عواطفه قهرا .

فهناك فى أعمق الأعماق روح أعتقها الله من كل القيود لا سلطان لأحد عليها .. حتى الشيطان يقول له الله :

ـ ان عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين .

والغاوون هم الذين اتبعوا الشيطان بارادتهم وهواهم دون سلطان منه

ولهذا تعجز كل وسائل الاصلاح التى تعتمد على العنف والقهر والقوة .

وتفشل النظم التى تحاول تغيير المجتمعات بالوسائل البوليسية والأساليب القهرية ..

لان الحب لا يستخرج بالارغام .

والشرف والنبل والاخلاص والرحمة والمودة لا تولد بالكرباج ولا تصنع بقرار وزارى .

وإنما هى نبات ربانى ..

وينمو هذا النبات ويخضر ويزدهر ويثمر حينما تنفلق البذور فى الطين .. وتخرج من التراب وتتوجه بأوراقها الخضر إلى مصدر النور .. ومصدر الطاقة .. إلى شمس وجودها .. إلى ربها حينما يصبح كل واحد فينا مثل (عباد الشمس) يتحرك معلق الأبصار لا يغفل عن خالقه لحظة .. إينما توجه ينادى قلبه ربى .. ربى .. فيجاوبه الصدى مع كل نبضة قلب .. لبيك عبدى .. أنا معك .. فلا مصدر للحياة والحب والخير إلا الله .

والله يقول : لا إله إلا أنا لا حاكم غيرى .. لا فاعل سواى .. أنا وحدى الضار النافع والمعز والمذل .. والباسط القابض ، والرافع الخافض ، والمحيى المميت ..

وهذه الفلسفة فى كلمة واحدة تعنى أن بناء شخصية الانسان السوية هى التمسك بمنهج الله .. دون خوف من سلطان أحد .. حاكما كان أو محكوما .

.. و.. أمضى فى حوارى مع الدكتور مصطفى محمود ..

■ ما يحدث فى الإتحاد السوفيتى :

قلت للدكتور مصطفى محمود : ما يحدث الآن من تغيرات فى الاتحاد السوفيتى .. وما يفعله الآن جوربا تشوف من تغيير .. أليس معنى هذا ان الحتمية التاريخية كما تنادى فلسفة الماركسية قد زلزلت كفلسفة ؟

قال : هذا يلغى الماركسية من جذورها ، لان كل ما قالوه رجعوا فيه .. فعندما بدأت الماركسية أو البلشفية .. ابتدأت بالمشاعية المطلقة حتى النساء .. فأول شىء رجعوا عنها هى شيوعية النساء فاستبدلوها بالزواج .. فقد وجدوا أن هذا يعنى الخراب فرجعوا فيها واستبدلوها بالزواج الكاثوليكى .. وبدلا من أن يصبح التأميم على مجال واسع تراجعوا .. وأصبحوا هناك يمتلكون .. الفلاح يزرع قطعة من الأرض مثلا .. ونحن نعرف أن ستالين أعدم خمسة ملايين فلاح .. وكل هذه كانت أخطاء بشعة جدا.ان ستالين عندما أعدم الملايين الخمسة من الفلاحين **قال** : انى فعلت ذلك من أجل الفلاحين ..

الخريطة تغيرت .. فى الصين أصبح للفلاح حيازة ونرى خرشوف يقول :

- البقرة التى يملكها صاحبها تعطى من اللبن اكثر من البقرة التى تملكها الدولة ..

وهذا اعتراف شامل بإلغاء كل الكلام الذى قيل عن ملكية الدولة لوسائل الانتاج وكل الفلسفة الماركسية إلخ .. وجاء جوربا تشوف وأكمل الباقى فهم قد تراجعوا واقتربوا من الرأسمالية .. كما ان الرأسمالية أصلحت من احتكاريتها وأعطت للعمال الكثير من المكاسب .. أى أنها اقتربت من الفكر الاشتراكى .. وأصبح ما بينهما خيط رفيع .. انهما لا يختلفان ، وان كانا يختلفان علينا فقط ..

■ مشيئة الخالق :

ويبدو أن الحديث فى السياسة ، وما يسود العالم من أمور لا تسر عقلا .. وما فيها من صراعات وحروب ودماء واشلاء ، وما يعج فيها من أطماع وزهو فارغ مما يثير الاحباط .. وكان على أن أدير الحديث إلى جهة أخرى وزاوية تهم الجميع ، لانها جزء لا يتجزأ من تكويننا .. وان نشد الرحال نحو الفكر الدينى .. وقبل ان نتحاور فى هذا المجال الرحيب كان يتداعى إلى ذهنى قوله :

ـ الحقيقة أنه لا أحد يستطيع أن يرزق أو يعطى أو أن يمنع أو يبنى أو يعمر أو يمنح حرية أو يرفع ظلما إلا الله ، وان كل ما يفعله الانسان من هذه الصالحات هو فعل بالوكالة والاستخلاف والاذن والمشيئة الالهية ، وأن الحاكم طول الوقت مجرد اداة لمشيئة الخالق .. والأسباب الطيعة فى يده مظهر من مظاهر التيسير والتمكين الالهى ..

فكيف يستطيع حاكم ان يمنح الحرية لشعب وهو عاجز عن منحها لنفسه فقد يصحو ذلك الحاكم الجبار فلا يجد ذراعه ولا ساقه ويجد نصفه مشلولا سجين فراشه لا يستطيع أن يبرحه ، وقد يفقد بصره لحظة بانفصال فى الشبكية فلا يرى طريقه .. ثم هو يموت فى النهاية وينفق كالدابة بين كوكبة من الأطباء ومظاهرة من العلم فلا ينفعه علم ولا طب فكيف يمنحنا الحياة من لا يستطيع أن يمنحها لنفسه ؟..

وكيف يحررنا من لا يستطيع أن يحرر نفسه ؟ وهل نفعت شاه إيران سبعة آلاف مليون دولار وهو يبحث عن سكن فلا يجد .. وهو يأكل فلا يهضم .. ويضطجع فلا ينام ؟..

ويقول الدكتور مصطفى محمود :

ـ لا يستطيع جبار مهما بلغ جبروته أن يمد في حكمه يوما أو ساعة أو ثانية .. وانما ينجح الحاكم في الاصلاح والتعمير والتغيير وتثبيت قدمه اذا حكم بالموافقة والانسجام مع القوانين والسنن الالهية .. واذا احسن الخلافة والوكالة عن سيده .. فاذا خرج عن القوانين الى حكم هواه وشهوته ، واذا نسى ختم التوكيل وظن نفسه السيد مطلق اليد في مصائر الناس .. واذا أصابه الكرسى بدوار الكبرياء والعزة فقد سقط عن كرسيه وسقطت عنه الخلافة .. وانتهى أمره إلى الاحباط والطرد. وأخطأ من تصور ان له محررا سوى خالقه فعلق أوهامه بهذه الدمى والعرائس التى تتداول كراسى السلطة .. إنما هو ديكور من ورق اللعب .. وامتحان يعلم به الخالق توجهات قلوب عباده فلا تعلقوا قلوبكم بأحد سواه. وإعلموا انه وحده الذى يحرك العرائس ويضعها على عروشها ثم يسقطها ثم يأتى بغيرها .. وانه هو وحده محرر الشعوب ، وصانع المعجزات. وان الرخاء يأتى من عنده. وان تخضير الصحارى مشروعه وإلهامه ، والتكنولوجيا بعض علمه الذى اتاحه لنا .. واننا لا ندور وحدنا في فراغ .. وإنما نحن طوافون حوله نتلقى عنه الليل والنهار. ذلك هو الله رب العالمين. لا إله إلا هو .. له وحده الحاكمية .. وتلك هى حقيقة كلمة التقوى التى علمها الله جميع انبيائه .. لا إله إلا الله ..

***

* الخاتمـــة :

■ الحـب الحقيقـى

كان غرضى من هذه الدراسة أن اشير مجرد أصبع من بعيد الى اديب مفكر فنان ، جاء الى الحياة لترتسم فى ذهنه العديد من علامات الاستفهام حول الكون والحياة وما وراء الحياة .. انسان يريد أن يستشف معنى الحياة .. وهدف الوجود .. درس .. وتأمل .. ورأى .. وبحث .. وطاف .. وكان كل ذلك مقدمات للوصول الى الحقيقة .. أو محاولة الوصول الى الحقيقة .

وهو فى محاولته الوصول الى الحقيقة ، تزود بكل الوسائل التى تساعده على تحقيق هدفه ..

درس الطب وعرف الحدود التى يمكن أن يعرِف فيها والذى يقف امامها عاجزا تماما امام طلاسم الجسم الانسانى ..

قرأ الفلسفة التى تبدأ بعلامات استفهام وتنتهى أيضا بعلامات استفهام تعمق التصوف .. وعلم أنه ذلك النور الذى يقذفه الله فى القلب .

.. فيرى الصوفى مالا يراه الآخرون ، ويحس بما لا يحسون .. ومع ذلك .. فللتصوف محاذيره ..

تذوق الفنون وما فيها من قدرة على أن تمد الفنان برؤى جديدة من

خلالها تشف النفس .. وتهفو الروح الى الاحساس بما فى الحياة من قيم الجمال .

ركب زورقا يجوب به خضم امواج متلاطمة للوصول الى شاطىء آمن ، وكان هو الملاح الماهر الذى أعد نفسه لمخاطر رحلة فى حاجة الى معرفة بالجغرافيا وأسرار البحار .. ومعه البوصلة التى توجه خطاه ..

ومن حصيلة كل هذه الخبرة .. رأى أن الالحاد جهل .. والايمان هو نور الوجود .. وهو البوصلة التى تحدد اتجاه الملاح ..

وأن أعظم متعة .. ليست متعة الجسد ، ولكن متعة الروح .. ومتعة الروح تتحقق عندما يسمو الانسان فوق الماديات ، ويرتفع الى حب أسمى وارفع .. حب الله ..

وتعال نتوقف معا امام هذا الدعاء العميق للدكتور مصطفى محمود .. والذى يضع خطا أو خطوطا .. أمام نفس ظامئة الى حب الله .. نفس اسلمت قيادها لربها .. انه يقول :

- مولاى .. يقولون أن أكبر الخطايا هى خطايا العارفين ..

ولكنى اسألك يارب أين العارف أو الجاهل الذى استطاع أن يسلم من الفتنة دون رحمة منك .. وأنت الذى سويت نفوسنا وخلقتها ووصفتها بأنها أمارة بالسوء إلا من رحم ربى ..

وأين من له الحول والقوة بدونك .. وهذا جبريل يقول لبيك لا حول من معصية الله إلا بعصمة الله ولا قوة على طاعة الله إلا بتمكين الله ..

وهل استعصم الذين استعصموا إلا بعصمتك .. وهل تاب الذين تابوا إلا بتوبتك .. وهل استغفروا إلا بمغفرتك ..

ألهى .. لقد تنفست أول ما تنفست بك ونطقت بك وسمعت بك وابصرت

بك ومشيت واهتديت بك .. وضللت حينما ضللت عندما خرجت عن أمرك .

سألتك يارب بعبوديتى أن ترفع عنى غضبك .. فهأنذا وقد خلعت عن نفسى كل الدعاوى وتبرأت من كل حول وطول ولبست ثوب الذل فى رحاب قدرتك .

انك لن تضيعنى وأنا عبدك ..

لن تضيع عبدا ذل لربوبيتك وخشع لجلالك ..

وكيف يضيع عبد عند مولى رحيم ، فكيف إذا كان هذا المولى هو أرحم الراحمين ..

رب اجذبنى اليك بحبلك المدود لأخرج من ظلمتى الى نورك ، ومن عدميتى الى وجودك ، ومن تفرقى الى جمعيتك ، ومن هوانى الى عزتك .. فأنت العزيز حقا .. الذى لن تضرك ذنوبى ولن تنفعك حسناتى ..

أن كل ذنوبنا يارب لن تنقص من ملكك ..

وكل حسناتنا لن تزيد من سلطانك ..

فأنت أنت المتعال على كل ما خلقت ، المستغنى عن كل ما صنعت .. وأنت القائل :

هؤلاء فى الجنة ولا ابالى وهؤلاء فى النار ولا ابالى ..

وأنت القائل على لسان نبيك :

ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم ..

فهأنذا ادعوك فلا أكف عن الدعاء .. فأنا المحتاج .

أنا المشكلة .. وأنا المسألة ..

أنا العدم وأنت الوجود فلا تضيعنى .

عاونى يارب على أن اتخطى نفسى الى نفسى .. اتخطى نفسى الأمارة الطامعة .

الامارة الطامعة فى حيازة الدنيا .. إلى نفسى الطامعة فيك فى جوارك ورحمتك ونورك .. ووجهك ..

لقد جربت حيازة كل شىء فما ازددت إلا فقرا ، وكلما طاوعت رغائبى ، إزدادت جوعا وإلحاحا وتنوعا ..

حينما طاوعت شهواتى إلى المال إزددت بالغنى طمعا وحرصا ، وحينما طاوعت شهوتى إلى النساء إزددت بالاشباع عطشا وتطلعا إلى التلوين والتغيير .. وكأنما أشرب من ماء مالح فأزداد على الشرب ظمأ على ظمأ ..

وما حسبته حرية كان عبودية وخضوعا للحيوان المختفى تحت جلدى ثم هبوطا إلى درك الآلية المادية وإلى سجن الضرورات وظلمة الحشوة الطينية وغلظتها ..

كنت أسقط وأنا أحسب أنى أحلق وأرفرف ..

وخدعنى شيطانى حينما غلف هذه الرغبات بالشعر وذوقها بالخيال الكاذب وزينها بالعطور وزفها فى أبهة الكلمات وبخور العواطف .. ولكن صحوة الندم كانت توقظنى المرة بعد المرة على اللا شىء والخواء ..

إلهى .. لم تعد الدنيا ولا نفسى الطامعة فى الدنيا .. ولا العلوم التى تسخر لى هذه الدنيا ، ولا الكلمات التى أحتال بها على هذه الدنيا .. مرادى ولا بضاعتى ..

وإنما أنت وحدك مرادى ومقصودى ومطلوبى ، فعاونى بك عليك ، وخلصنى بك من سواك وطهرنى بنورك من عبوديتى لغيرك ، فكل طلب لغيرك خسار ..

أنت أنت وحدك .. وما ارتضى مشوار هذه الدنيا إلا لدلالة هذا المشوار عليك ، وما يبهرنى الجمال إلا لصدوره عنك .. وما أقصد الخير ولا العدل

ولا الحرية ولا الحق الا لأنها تجليات وأحكام أسمائك الحسنى يامن تسميت بأنك الحق ..

ولكن تلك هجرة لا أقدر عليها بدونك ، ونظرة لا أقوى عليها بغير معونتك .. فعاونى وأشدد أزرى .. فحسبى النية والتوجه والمبادرة فذاك جهد الفقير .. فليس أفقر منى .. وهل بعد العدم فقر .. وقد جئت إلى الدنيا معدما وأخرج منها وأجوزها معدما .. زادى منك وقوتى منك ورؤيتى منك ونورى منك ..

واليوم جاءت الهجرة الكبرى التى أعبر فيها بحار الدنيا دون أن أبتل ، وأخوض نارها دون أن أحترق .. فكيف السبيل إلى ذلك دون يدك مضمومة إلى يدى

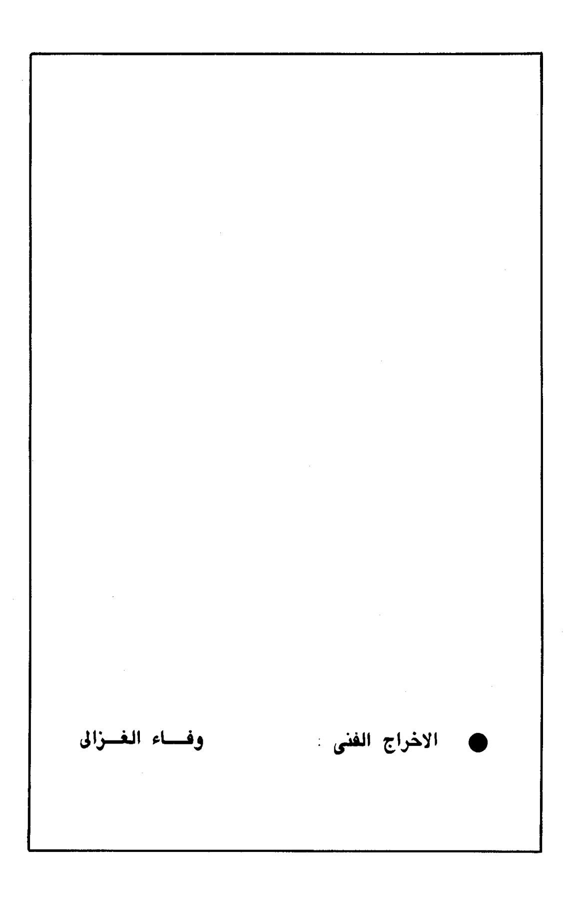
وهل يدى الا من صنع يدك ؟ .. وهل يدى إلا من يدك ؟
وهل هناك إلا يد واحدة ؟
لاإله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ..
سبحانك لاأرى لى يدا
سبحانك لاأرى سواك
لاإله إلا الله
لاإله إلا الله حقا وصدقا
وذاتك هى واحدة الحسن
الحسن كله منها
والحب كله لها ..
ويدك هى واحدة المشيئة ..

الفضل كله منها ، والقوة كلها بها .. وان تعددت الأيدى فى الظاهر وظن الظانون تعدد المشيئات .. وإن تعدد المحبون وتعددت المحبوبات وظن كل واحد أنه يقبل يد محبوبته .. فما يقبل الكل الا يدك دون أن يدروا .. سبحانك لا سواك .. مايركع الكل إلا على بابك .. وما يلثم الكل إلا أعتابك .. مؤمنون وكفرة .. وأن ظن الكافر أنه يلثم دينارا أو يقبل شفة أو خدا ، فانما هى أيادى رحمتك ، أو أيادى لعنتك ، هى مايلثم ويقبل دون أن يدرى ..

وإنما هى أسماء وأفعال وأوصاف
والمسمى واحد
والفاعل واحد
والموصوف واحد
لاإله إلا الله .
لاإله إلا هو
الحمد له فى الأول والآخر
رفعت الاقلام وطويت الصحف وانتهت الكلمات ..

***

محتويات الكتاب



● الاخراج الفنى : وفـــاء الغـــزالى

رقم الايداع
١٩٨٨ / ٣٧١٨

طبع بمطابع انترناشيونال ت : ٣٤٧٤٢٥٩